



---

# الأدب البرتغالي

## تاريخه و تطوره

---



محمود علي مكي



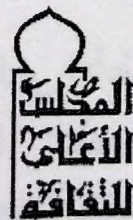


مجلس الأعلى للثقافة

# الأدب البرتغالي

تاريخه وتطوره

د . محمود علي مكي



٢٠٠٢



## المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : الأدب البرتغالي  
اسم المؤلف : د . محمود على مكي  
الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٢ م .

---

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

el : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com



## فهرس

٥	١ - توطئة تاريخية
	٢ - الأدب البرتغالي : النشأة والبدايات
٨	من القرن الثالث عشر حتى نهاية السادس عشرة
٨	الشعر
١٧	النثر
	٣ - عصر الركود :
٢٣	لقرنان السابع عشر والثامن عشر :
٢٥	الشعر
٣٠	النثر
	٤ - الرومانسية والواقعية :
٣٦	لقرن التاسع عشر والعشرون
٣٧	الشعر
٤٨	النثر







## الأدب البرتغالى

### ١ - توطئة تاريخية :

الاسم القديم للبرتغال هو لوزيتانيا Lusitania ( لجدانية فى المصادر الأندلسية ) ، وهى تمثل شريطاً مستطيلاً على ساحل المحيط الأطلنطى فى غرب شبه جزيرة إيبيريا ، وتحدها إسبانيا من الشمال والشرق ، وكان يقطن هذه البلاد فى تاريخها القديم شعب كلثى إيبيرى هو مجموعة من القبائل الشديدة المراس التى قاومت الاحتلال القرطاجى ثم الرومانى ، غير أن الرومان استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليها منذ القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ، وعلى مدى نحو خمسة قرون أصبحت لوزيتانيا إحدى مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، واتخذ شعبها اللاتينية لغة له ، ومع مرور الزمن تحولت إلى لهجة دارجة هى برتغالية اليوم ، وكانت عاصمة هذه المقاطعة هى مدينة ماردة Mérida التى تتبع إسبانيا اليوم وتضم الجزء الجنوبى من البرتغال ، أما الجزء الشمالى فقد كان تابعاً لمقاطعة جليقية Galicia ، وعاصمتها مدينة براغا Braga ( براقرة فى المصادر الأندلسية ) ، وفى أوائل القرن الخامس الميلادى قضت هجمات البرابرة على الامبراطورية الرومانية ، وأعقب ذلك احتلال القوط الغربيين لشبه جزيرة إيبيريا ، فحكموها على مدى ثلاثة قرون حتى الفتح العربى سنة ٧١١ للميلاد ، فأصبحت البرتغال إحدى ولايات « غرب الأندلس » ، طوال أيام الإمارة والخلافة الأموية . وبعد سقوط الخلافة فى أعقاب الفتنة البربرية فى سنة ١٠٣١ وقيام دول الطوائف توزعت البرتغال بين ثلاث ممالك : مملكة ليون التى تبعتها الأقاليم الشمالية المتاخمة لجليقية ، ودولة بنى الأوحس وعاصمتها مدينة بطليوس Badajoz ( فى إسبانيا اليوم ) وتضم الأقاليم الوسطى ، وأما جنوب البرتغال فكان تابعاً لمملكة بنى عباد بإشبيلية . ولما دخل المرابطون الأندلس فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى



آلت إليهم المنطقتان الوسطى والجنوبية . وظل الأمر كذلك على عهد الموحدين الذين ورثوا دولة المرابطين منذ منتصف القرن الثاني عشر ، وإن تمكنت مملكة ليون المسيحية من الاستيلاء على عدد متزايد من الحواضر التي كانت فى حوزة المسلمين فى المنطقة الوسطى منذ أوائل القرن الثالث عشر . ولم يأت منتصف هذا القرن حتى آل ما كان بأيدي المسلمين من أرض البرتغال إلى مملكة قشتالة وليون أو إلى حركة المقاومة المسيحية التى نهض بها أهل البلاد ممهدين بها إلى إنشاء مملكة مستقلة على أنقاض دولة المسلمين فى الأندلس .

ويعود أصل هذه المملكة التى أصبحت تدعى البرتغال إلى اثنين من النبلاء الفرنسيين المشاركين فى الحملة الصليبية التى قادها ملك قشتالة ألفونسو السادس واستولى بها على طليطلة ( سنة ١٠٨ ) ، وهما ريمند Raimundo وإنريكي Henrique فقد زوج الملك هذين النبيلين من ابنتيه أوركا وتيريا اعترافاً بجميلهما ، ومنح ثانيهما لقب « قومس » ( كونت ) البرتغال ، مقطّعاً إياه الشريط الشمالى وعاصمة مدينة أوبورتو oporto ، ثم خلف هذا الكونت ابنه ألفونسو إنريكز Alfonso Henriquez ( الذى يدعوهُ المسلمون ابن الريق ) ، فنادى بنفسه ملكاً مستقلاً للبرتغال فى سنة ١١٤٣ ، وذلك بعد أن انتزع من المسلمين شنترين Santarem و لشبوت Lisboa ويابرة Evora وباجة Beja أى المناطق الوسطى ، وأتم ألفونسو الثالث فى القرن التالى الاستلاء على المناطق الجنوبية التى مازالت تحمل اسمها العربى « الغرب Algarve » ، ويرد الفضل فى تنظيم المملكة وتحويلها إلى قوة بحرية كبرى وإنشاء جامعة قلمرية Caimbra إلى الملك ديونيس Dionis ( ١٢٧٩ - ١٣٢٥ ) وفى سنة ١٣٨٥ انتهى حكم الأسرة البورغونية ، فحاول ملك قشتالة خوان الأول ضم البرتغال إلى مملكته ، ولكن البرتغاليين أحرزوا على القشتاليين انتصاراً كبيراً فى معركة ألخوباروتا Aljubarrota ( سنة ١٣٨٥ ) وأعقب ذلك مناداتهم بملك عليهم كان بطل المعركة المذكورة ، وتلقب هذا بجوان



الأول ، وهو رأس أسرة مالكة جديدة معروفة باسم Avis ، وظل حكم هذه الأسرة نحو قرنين إلى أن انتهت بمقتل آخر ملوكهم سبائيان في معركة « وادي المخازن » ، قرب القصر الكبير في المغرب على أيدي المجاهدين المغاربة سنة ١٥٧٨ . وخلال حكم هذه الأسرة كان التوسع الكبير للبرتغال فيما وراء البحار : البرازيل في أمريكا الجنوبية وغينيا وأنجولا وموزمبيق في أفريقيا بالإضافة إلى مستوطنات في آسيا مثل جوا في الهند وماكاو في الصين . وفي سنة ١٥٨٠ تمكن فيليب الثاني ملك إسبانيا من ضم البرتغال إلى ملكه ، وظل الحكم الإسباني حتى سنة ١٦٤٠ حين ثار البرتغاليون واستردوا استقلالهم بعد حرب مريرة أعانهم فيها الفرنسيون والإنجليز ، ونادوا بملك جديد تم من سلالة ملوكهم القدماء ، هو جوان الرابع . ومنذ سنة ١٧٠٣ انعقد حلف بين البرتغال وإنجلترا أصبحت هذه الدولة بمقتضاه أشبه بحامية للبرتغال وضامنة للحفاظ على مستعمراتها الواسعة فيما وراء البحار . وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفي ظل الملك جوزيه الأول فرض وزيره بومبال Pombal على البلاد حكما دكتاتوريا مستنيراً حقق فيه عدداً من الإصلاحات من بينها فيما يتصل بالثقافة إنشاء المجمع اللغوي البرتغالي . ولكن الملكة ماريا الأولى ابنة جوزيه وخليفته طردت وزير أبيها ونفته . وفي سنة ١٨٠٨ احتل نابليون بونابرت البرتغال ، واضطر الأمير الوصي على العرش للفرار إلى البرازيل حيث نصب ملكاً في المنفى باسم جوان السادس ، وبعد جلاء الفرنسيين عاد إلى البرتغال تاركاً ابنه بدرو نائباً له في البرازيل فنادى به أهل البلاد امبراطوراً عليهم في سنة ١٨٢٠ ، وتبع ذلك استقلال البرازيل وانفصالها عن الحكم البرتغالي ( في سنة ١٨٢٢ ) . أما البرتغال فقد نشبت فيها حرب أهلية بين سنتي ١٨٢٦ و ١٨٣٣ بسبب النزاع على العرش . وبعد فترة هدوء استمرت في عهد الملكين بدرو الخامس ولويس الأول عادت الأمور إلى الاضطراب ، وأنتهى الأمر باغتيال الملك وولى عهده في ١٩٠٨ ، وأعلنت الجمهورية في ١٩١٠ ، ثم



تحول نظام الحكم إلى دكتاتورية عسكرية . وفى سنة ١٩٣٣ قبض على مقاليد الحكم الدكتاتور أوليفيرا سالازار الذى تحالف مع دكتاتور إسبانيا الجنرال فرانكو منذ سنة ١٩٤٢ حينما أعلن الحاكم ما يسمى بالكتلة الإيبيرية . وفى أواخر السبعينيات بعد وفاة سالازار أعلنت نهاية الدكتاتورية العسكرية ، وأجريت انتخابات حرة ، وأصبح الحكم قائماً على تعدد الأحزاب فى ظل نظام ديمقراطى .

## ٢ - الأدب البرتغالى : النشأة والبدائيات :

### من القرن الثالث عشر حتى نهاية السادس عشر :

اللغة البرتغالية - مثل أخواتها المشتقة من اللاتينية : الفرنسية والإيطالية والإسبانية - هى اللهجة التى كان يتحدث بها العامة من سكان البلاد ، إلا أن الأسبانية والبرتغالية هما أكثر هذه اللغات تأثراً بالعربية ، فقد ولدتا وتطورتا فى ظل الوجود العربى الإسلامى فى شبه الجزيرة ، ولهذا فقد دخلت هما آلاف من الألفاظ والتعابير العربية ، بل إن البرتغالية - بحكم انعزائها وضآلة مالحقتها من التطور - كانت أشد من الإسبانية احتفاظاً بالصور التى انتقلت بها إليها تلك الألفاظ والتعابير . وقد انعكست هذه الظاهرة على الأدب ، فقد تلقى فى نشأته الأولى من التأثيرات العربية فى روحه وموضوعاته وطرق تعبيره ما كان سمة مميزة بارزة لاتخطها العين . وسوف يكون حديثنا عن مولد الأدب البرتغالى وبدائياته موزع على الشعر بأنواعه : الغنائى والمسرحى والملحمى ، ثم النثر فى مختلف صوره .

الشعر :

كان الشعر الغنائى هو أسبق الأنواع الشعرية فى الظهور منذ القرن الثالث عشر فقد نظم الملك القشتالى ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم ( ت ١٢٨٤ ) ديواناً



المعروف بأغاني السيدة مريم العذراء **Las Cantigas de Santa Maria** باللغة  
المسماة « الجليقية البرتغالية **Galaico - Português** ، وهي مجموعة من القصائد  
في مديح العذراء مريم وذكر معجزاتها . وأما الشعر البرتغالي الخالص فأقدم  
نماذجها التي وصلت إلينا هي القصائد الغنائية التي تدعى **Cancioneiros** وقد  
احتفظت بها ثلاث مخطوطات أهمها المعروفة باسم مجموعة أجودا **Ajuda** في  
لشبونة . ومحتوى هذه المخطوطات يتوزع على ثلاثة موضوعات : أغاني  
الصدقة **Cantigas de amigo** وأغاني الحب **Cant de amor** والأغاني  
الهجائية **Cant. de es Cárnio** . وأغاني الموضوع الأول تتألف من مقطوعات  
يكون مطلع المقطوعة الثانية منها هو آخر أبيات المقطوعة الأولى ، وكل مقطوعة  
تنتهي ببيت تغنيه الجوقة غناءً جماعياً ، وهو الذي يدعى دوراً **retornada** وأما  
الموضوع فإن هذه الأغاني تكون على ألسنة نساء عاشقات يبكين محبيهن وتحكى  
فيه الفتاة ماتلاقيه من انتظار الحبيب وهجره والشوق إليه والخوف من خيانتته  
والحزن على فقدته والغيرة عليه ، ويعبر عن الحبيب دائماً بلفظ « الغزال » وكثيراً ما  
تكون هذه الأغاني في صيغة مناجيات ومحاورات هي في الغالب بين الفتاة  
وأُمها ، كما تشتمل أيضاً على وصف لمشاهد الطبيعة التي يدور فيها اللقاء . ومن  
المشاهد المألوفة في هذا الشعر مشهد السفينة التي تحمل الحبيب بعيداً عن  
عاشقته ( **barcoralas** ) . وهناك نوع من تلك الأغاني يدعى **bailias** وهي  
التي تصاحب الرقصات الجماعية ، ونوع آخر يدعى أغاني الحجيج **cant de**  
**romerias** وهي التي تؤديها جماعات الحجاج الذين يقومون بزيارة مشاهد  
القديسين في مواسم معينة ، تم الأغاني الرعوية **pestorelas** ، وفيها نجد الفتاة  
الريفية أو الراحية تلتقي صدفة بسيد نبيل يكون أميراً أو فارساً ويدور بينهما حوار  
يفضى فيه الرجل للفتاة بحبه وتسمى هذه الأغاني أيضاً « جباليات **serranillas** »  
والنوع الثاني من هذا الشعر الغنائي هو الذي يدعى أغاني الحب ، وهنا نجد  
بدلاً من المرأة العاشقة الرجل الذي يتذلل للحبيبة ويضع نفسه في خدمتها ، وهي



أغان متأثرة بشعر التروبا دور الذى كان ينظمه شعراء بروقانس ( جنوب فرنسا )  
وكان هؤلاء الشعراء الجوالون يفدون على بلاطات الملوك والأمراء فى شبه جزير  
إيبيريا . على أن الأغاني البرتغالية لم تكن إلا صدىً باهتاً لا يقارن بالغنى العاطفي  
الذى نجده فى الشعراء البروتغاليين .

وأما النوع الثالث وهو الأغاني الهجائية التى كانت تدعى أيضاً *ant de mal - dizer* فهى أيضا تقليد لقصائد التروبادور التى تسمى *sirventés* ولاسيم  
النوع الذى كانت موضوعاته متعلقة بحياة الشاعر الخاصة بما فيها من تجاوزات  
سواء فى شرب الخمر أو فى الإفراط فى اللذات الجسدية .

ويلاحظ فى هذه الأشعار ولاسيما فيما يدعى بقصائد الصداقة أنها تكون  
تكون محاكاة لشعر الغزل الأندلسي ، وبخاصة الموشحات سواء فى بنيتها الدورية  
أو فى الموضوعات التى تتناولها أو فى تعابيرها وتقاليدها الشعرية . وجميع هذه  
القصائد منسوبة لشعراء لانعرف عن سيرهم إلا القليل . ومنهم شعراء جوالون  
محترفون *jograis* ، وبعضهم من رجال الكنيسة ، ومنهم من كانوا يتولون  
مناصب رفيعة ، نخص بالذكر من بينهم *Gongalotanes de Vinhal* الذى  
اشترك فى حصار ألفونسو العاشر مدينة إشبيلية المسلمة ( سنة ١٢٤٨ ) ومن أجل  
حسن بلائه منحه الملك لقباً تشريفياً ، *João soares coelho* الذى قام بدور كبير  
فى فتح منطقة الغرب *Algarve* ، وانتزاعها من أيدي المسلمين . وأكبر قدر  
من القصائد ( ١٣٨ قصيدة ) منسوبة إلى الملك البرتغالي *Dinis* نفسه ( توفى  
سنة ١٣٢٥ ) وقد أثبت فيها موهبته الشعرية الأصيلة ومكانته الرفيعة ، ولاسيما فى  
معالجة الموضوعات الشعبية ، كما كان من أبرع من صاغوا « أغاني الحب »  
تميرا الشرعى ألفونسو سانتشيس *Alfonso sanches* ( توفى ١٣٢٩ ) وأما الشعر



الذى نظمة الشعراء الجوالون المحترفون فهو أكثر تصويراً للفولكلور الشعبى الذى نبع منه .

وخلال القرن السادس عشر ظهر عدد من الشعراء الغنائيين يعدون البداية الحقيقية لهذا النوع من الشعراء كان أولهم سادى ميراندا Sa de Miranda ( ١٤٨١ - ١٥٥٨ ) ، وهو أحد النبلاء الذين كانوا على صلة وثيقة بالبلاط الملكى ، وهو يمثل تأثر الشعر البرتغالى بشعر عصر النهضة التى كانت إيطاليا مركزها . وكان قد رحل إلى إيطاليا فى ١٥٢١ حيث عرف الأشكال الشعرية الجديدة ، وحينما عاد بعد خمس سنوات أصبح مبشراً بالشعر الجديد على الطريقة الإيطالية مستخدماً البحر ذا الأحد عشر مقطعاً . ومقطوعاته eglogas التى تحمل عنوان Alexo وسونيتاته هى أول الأمثلة البرتغالية للنمط الجديد . وقد ألف أيضاً مسرحية نثرية بعنوان « الأجانب Os Estrangeiros » على طريقة أديب عصر النهضة الإيطالى أريوستو Ariosto ( ١٤٧٤ - ١٥٣٠ ) ، وعلى الرغم من أنه كان يحظى بتقدير البلاط فإننا نراه فجأة يهجر هذه الحياة ويعتزل فى أملاكه فى منطقة وادى نهر مينيوا الأعلى Alto Minho حيث يمارس الحياة فلاحاً غنياً . وظل مع ذلك مواصلاً لنشاطه الأدبى المتمثل فى مكاتباته لأدباء عصره وفى شعره الذى يعكس ضيقه وحزنه المتزايد لما كان يراه من تفكك المجتمع البرتغالى وانهيار القيم فيه بسبب التوسع الإستعمارى فيما وراء البحار ، وهو فى هذا الشعر ينظر فى غضب وأسف إلى الوراء ليسترجع فى حنين ذكريات ذلك المجتمع البسيط الذى كان الإنسان يقنع فيه بحياة ريفية سعيدة بسيطة . وفى قصيدته الرعوية بعنوان Basto يقدم لنا حواراً طويلاً بين راعيين الأول حريص على مصلحته الفردية الأنانية والآخر ملتزم بقضايا مجتمعه . أما رسائله Cartas فنرى فيها هجاءه ونقده لمظاهر الفساد التى كان يرصدها فى مجتمعه : فساد القضاء ونفاق رجال البلاط وخواء رجال الكنيسة وبطرتهم وانهيار القيم الخلقية فى المجتمع



كله . وهو فى الجملة يعد ثانى شخصية أدبية كبيرة فى عصره بعد خيل فيسنتى Gil Vicente الذى سيأتى الكلام عنه .

ومن معاصرى سادى ميراندا وهو أيضا من رواد الشعر الغنائى الجديد الشاعر والقصاص برنارديم ريبيرو Bernardim Ribeiro ( ١٤٨٢ - ١٥٥٢ ) ، وكان متصلا بالبلاط الملكى ولهذا فقد أدرجت مجموعة كبيرة من شعره فى الديوان الكبير Cancioneiro General ( ١٥١٦ ) ويبدو أن ريبيرو كان يهوديا اعتنق المسيحية ، وذلك لأن فى أسلوبه وصوره مايشى بذلك . وله مجموعة أخرى من القصائد ورواية عنوانها « كتاب الوصيفة والفتاة e Livro de menina Moça » تم نشرها بعد وفاته سنة ١٥٥٤ . وريبيرو من أكثر الشعراء تأثرا ببتراركا ولا سيما فى أسلوبه فى الحوار الغرامى بين العاشقين ، غير أنه كان لا يرى فى الحب مجرد موضوع أدبى ، وإنما قوة حيوية تبرر حياة الإنسان وتجعل معنى لوجوده . ويبدو ذلك جليا فى روايته التى أشرنا إليها ، إذ يصور ما يحدثه الحب فى نفوس العاشقين من رغبات لا يمكن أن تتحقق وتكون فيها حياة المحبين سلسلة من الآلام . وربما كان لنا أن نربط بين مفهومه للحب وآثاره وبين ما كتبه ابن حزم القرطبى فى « طوق الحمامة » ، كذلك يمكن أن ترى فى الرواية بذرة ما يعرف فى الأدب البرتغالى على مر العصور بـ « الحنين المغرق فى الحزن saudade » . ومشاهد الطبيعة فى الرواية بما فيها من حسية عارمة تعين على تعميق مشاعر الألم لدى شخصيات الرواية . وفى أسلوبه من الرقة والإيقاع الموسيقى المحكم ما يجعل الرواية رغم نثريتها أشبه بأغاني الحب الرعوية eglogas . ويكاد ريبيرو ينفرد بهذه الخاصية بين سائر مؤلفى الأدب الروائى الأوروبى المعاصر له .

ومن تابع سادى ميراندا فى مذهب الشعري أنتونيو فيريرا Antonio Ferreira ( ١٥٢٨ - ١٥٦٩ ) ، وكان قد بدأ دراسة القانون فى جامعة قلمرية



Coimbr حيث تتلمذ على عالم الإنسانيات ديوغو دى تيفى ، وأصبح وهو فى ثامنة والعشرين قاضياً فى محكمة لشبونة . ولم يمتد به العمر إذ توفى فى الوباء الذى أصاب البلاد فى ١٥٦٩ . ونشر أشعاره بعد وفاته ابنه سنة ١٥٩٨ بعنوان قصائد برتغالية **Poemas Lusitanos** . وربما كان فيريرا أبرز الشعراء الذين يحبوا بالاتجاه الجديد الذى تزعمه سادى ميراندا والذى نادى بأن ينظم الشعر بالبرتغالية لا باللاتينية ولا بالإسبانية ، وكان متشرباً لمبادئ الكلاسيكية ومثلها ، هو يمثل رجل النهضة ، وهو نمط لم يكن آنذاك شائعاً فى شبه جزيرة إيبيريا . وفى شعره يحكم العقل المتزن الهادى ، ولهذا فقد اتسم بالوضوح إذ كان يخاطب عقل القارئ كما يخاطب مشاعره . ومثله العليا فى الكتابة قرجيل وهوراس ، والشكل الذى يرتضيه هو الكلاسيكى فى القصيدة ذات الطابع الملحمى وفى الرثاء والمقطوعة الهجائية **epigrama** وفى الرسالة . صحيح أنه نظم كذلك سونيتات على طريقة بتراركا ولكنه كان فيها أقل توفيقاً . وربما كان خير إنتاجه هو رسائله ، كما دان بشهرته لمسرحيته **A Castro** وهى عمل درامى فى خمسة فصول على الطريقة الإغريقية القديمة بقواف مرسلّة **Blank Verse** وبمصاحبة الجوقة . والموضوع مأخوذ من التاريخ البرتغالى : غرام الأمير دوم بدرو **Dom pedro** بإينيس دى كاسترو **ines / de castro** ومصرعها الذى قضت به مصلحة الدولة بأمر الملك ألفونسو الرابع والد الأمير . ولعل فيريرا فى النهاية هو الوحيد الذى حاول أن يكتب المأساة الكلاسيكية بين مؤلفى إسبانيا والبرتغال . ومن تلاميذ ميراندا أيضاً ديوغو برناردس **Diogo Bernardes** ( ١٥٣٠ - ١٦٠٥ ) وهو شاعر لا نكاد نعرف عن نشأته شيئاً ، ولكننا نراه فى سنة ١٥٧٦ عضواً فى سفارة أرسلها الملك البرتغالى سباستيان إلى مدريد . وفى سنة ١٥٧٨ رافق هذا الملك فى حملته ضد المغرب ، وهى التى انتهت بالهزيمة الساحقة التى منى بها الجيش البرتغالى وقتل فيها الملك سباستيان فى وقعة وادى المخازن ( سنة ١٥٧٨ ) ، وأخذ



برناردس أسيراً في القصر الكبير ، وبقي في أسر المغاربة حتى تم فداؤه في ١٨٢٢ وعاد إلي خدمة البلاط ، فتقرر له مرتب حتى سنة ١٥٩٣ . أما شعر برناردس كان يجرى على نهج أستاذه ساري ميراندا على الطريقتين التقليدية والإيطالية الجديدة . ويعد مع كاموينس أشهر ناظمي السونيئات في جيله ، وأدى ذلك إلى جامعي الشعر أدخلو كثيراً من شعره في شعر كاموينس . وفي سنة ١٥٩٤ نشر مجموعته الشعرية في مديح المسيح **Ao Bom Jesus** وكثير من مقطوعاته كدوماً مما نظمه أثناء أسره في المغرب . وفي سنة ١٥٩٦ نشر مجموعتين أخريتين تشملان علي أشعاره الأولى في الحب .

هذا عن الشعر الغنائي ، وأما الشعر المسرحي فتبرز في ميدانه شخصية خيسنتي **Gil Vicente** ( ١٤٧٠ - ١٥٣٦ ) الذي تتنازعه إسبانيا والبرتغال ، كان يكتب بلغتي البلدين ، وهو يعد أكبر الشعراء المسرحيين الأوربيين في شيكسبير ، ولم يكن عيد يحتفل به في البرتغال بين سنتي ١٥٠٢ و ١٥٣٦ بغير يتضمن تقديم إحدى مسرحياته فيه . وأول أعماله : **monologs do Vaqueiro** ، وهو من تلك المسرحيات الرعوية التي كان يكتبها قبله خوان إنثينا **Juan del Encina** أبو المسرح الإسباني ( ١٤٦٩ - ١٥٢٩ ) ، وهو أيم وارث تقليد المسرحيات ذات الطابع الوعظي والمسرحيات الهزلية والمحاكاة الساخرة للمواعظ وما يسمى بالـ **momo** ( التقليد الهزلي الساخر ) . وكانت المسرحية تستوحى من أحداث روايات الفروسية وإن كانت مقدمة في عرس رمزي . ومن أهم مسرحياته الدينية : موكب الروح **Auto Alma** ، ذات الطابع مختلف النماذج الإنسانية التي تضطرب في المجتمع البرتغالي في شكل فكاهة ساخر . ومن أمثلة هذه القطع : موكب المراكب **Auto das Borcas** ، و موكب المهرجان **Auto da Feira** ، والنماذج التي يقدمها فيهما هي في الغالب : رج



الدين ، والنبيل العاطل ، والمرأة الغبية ، والرجل الذي يتسبب فى إصابتها بالغباء ... وهو ناقد عنيف لأمثال هذه الأنماط ، ولا سيما لرجال الدين بمواعظهم الفارغة والاحتفالات الدينية المليئة بالمظاهر الوثنية ، ولما يتعرض له اليهود من الاضطهاد . ومن هنا ربط بعض الباحثين بينه وبين فكر معاصره إيراسموس Erasmus ( ١٤٦٦ - ١٥٣٦ ) مجدد الفكر المسيحى فى عصره ، ولو أن هناك باحثين آخرين ينكرون هذه الصلة . ومعظم مسرحيات خيل فيسنتى تنتهى بالغناء والرقص ، وهنا نراه يتميز شاعراً مقتدراً سواء فى مدائحه للعدراء أو فى مقطوعاته الساخرة أو الغنائية التى حاكى فيها الأغانى الغزلية التى تدعى ، أغانى الصداقة ، وقد جمعت مسرحيات خيل فيسنتى بعد موته ونشرت ( سنة ١٥٦٢ ) على أيدى ابنه وابنته ، ولكن محاكم التحقيق كانت تحذف منها ما تراه نقداً صارخاً للكنيسة ورجال الدين .

وأما الشعر الملحمى فيعد لويس دى كاموينس Luis de Camões ( ١٥٢٤ - ١٥٨٠ ) أعظم أعلامه ولو أن مكانته فى الشعر الغنائى لا تقل عنها فى الميدان الملحمى . وهو - مثل خيل فيسنتى - ممن كانوا ينظمون شعرهم باللغتين القشتالية ( الإسبانية ) والبرتغالية . وكان ينتمى إلى أسرة من طبقة صغار النبلاء فى جليقية ، والتحق بجامعة قلمرية ثم انخرط فى سلك الجندية وحارب فى المغرب حيث فقد إحدى عينيه ، وفى لشبونة أودع السجن سنة بسبب اشتراكه فى عراك . وفى سنة ١٥٥٣ رحل إلى الهند ، وعرف هناك مدى اتساع المغامرة البرتغالية فى عالم الشرق الأقصى حتى بحار الصين . وفى طريق عودته لوطنه فقد مخطوط أشعاره ، ولكنه سرعان ما نظم ملحمة ، البرتغاليات Os Lusíadas التى أهداها للملك سباستيان ( الذى كان مقتلة فى المغرب فى معركة وادى المخازن سنة ١٥٧٨ ) ، ولكنه لم ينل من الملك إلا معاشاً ضئيلاً لم يكن يدفع له بانتظام ، فعاش فى لشبونة فى فقر شديد حتى وفاته . ولم يطبع شعره الغنائى إلا بعد موته بسنوات ( فى ١٥٩٥ ) .



وقد اشتهر في حياته بشعره الملحمي في عصر كان يعد هذا الشعر قمة  
الأدب الرفيع . أما الآن فإن كاموينس يعتبر في ميزان النقد أعظم شاعر غنائي في  
شبه جزيرة إيبيريا في وقته ، فهو مرهف الحساسية إزاء الجمال الحسي ، وماذا  
بطبيعته إلى أناقة شعر عصر النهضة الأفلاطوني ، وفي شعره نلتقى بالعاطفة  
الحارة والثقافة الرفيعة والتعبير الأنيق ، وهو يجيد النظم في جميع الأشكال الشعرية  
من « الريدونديا Redondilla » ( المدورة ) التقليدية إلى الأشكال الحديثة التي أتت  
بها عصر النهضة مثل السونيئات والأناشيد Canzone والمقطوعات الرعوية  
Eglogas إلى الشعر الملحمي وشعر الرثاء . والحب هو الموضوع الأساس  
لغنائياته ، ونجد فيها التعبير عن الإحساس البسيط التلقائي ، وقد ينتقل من ذلك  
إلى التأملات الروحية والتحليق في الأجواء الصوفية والتعمق في استبطان مشاعر  
في أغوار نفسه ، وهذا ما يكسب شعره قيمة فكرية عالية . وكاموينس يرى أن  
حينما يتعذر على العاشق بلوغ بغيته بسبب الفراق أو الموت أو عدم الاستجابة من  
الطرف الآخر فإن الحب يتحول إلى غاية في ذاته وإلى تسام روحى مجرد ، بل  
هو يرى المثالية حينئذ في غياب المحبوب ، فيصبح الحب قادراً على التغلب  
على الحزن وعلى الشجن ( ال Saudade ) ، ويعود وسيلة للارتقاء إلى الجمال  
المطلق . والموضوع الثانى الذى عالجه كاموينس هو بيئة العالم ، وله أفرد الشاء  
قصيدته الطويلة من البحر العروضى المسمى بالثمانى ( أى ذى المقاطع الثمانية  
، حول فوضى العالم Oitavas sobre o Des concerto do Mando ، وفيه  
نجد تأملاته حول ما هو واقع فى مجتمعه من توزيع الثواب والعقاب تدفعه إلى  
التعبير عن الأسف لأن الثروة والقوة فى أيدي من لا يستحقونهما ، ولهذا ينتهي  
بوصف العالم بالفساد والفوضى ، وهو يربط بين هذا التصور وتصوره للحب  
فالوصول إلى المحبوب أمر مستحيل فى عالم تسوده الفوضى وليس فيه مكان  
لمنطق سليم .

وأما ملحمة « البرتغاليات Os Lusíadas » ، فهي تغن ببطولات أهل بلاده  
فى الكشف الجغرافية التى قام بها رحالته وفى تحولهم إلى قوة بحرية واستعمارياً



بسط سلطانها على مساحة هائلة الاتساع في القارات الثلاث ، وهو هنا يقدم مفهوماً جديداً للبطولة يختلف عن المفهوم القديم الذى كان الضوء يسلط فيه على فرد هو المضطلع بالمنجزات الخارقة ، وإنما البطولة هنا للشعب البرتغالى كه . وهو في أثناء ذلك يكشف عن اهتمام الإنسان بالكوزموغرافية والجغرافية الكلاسيكية وبظواهر الطبيعة وعادات الشعوب الأجنبية ، ونستشف منها سعة ثقافة الشاعر وإحاطته بمؤلفات المؤرخين البرتغاليين وبالقصص المتداولة عن الرحالة ، ويستمد من خبرته الشخصية تصوير حياة البحارة وعاداتهم وما يخوضونه من مغامرات في رحلاتهم البحرية ، فنرى فاسكودى جاما ورفاقه يتحركون ويتحدثون على نحو جدير بالإعجاب . وأسلوب الحوار شائع في الملحمة ، على أن هناك حوارات كانت موضع استياء الكنيسة مثل خطاب عجوز رستيلو Velho do restelo الذى تضمن إدانة صريحة لما يكون يحدو بكثير من الفاتحين البرتغاليين من عوامل الجشع والحرص على المغانم والطمع فى السلطة ، وإن تستروا بقناع من « الحرب الصليبية » التى يرفعون فيها شعار الدين . وهذه نزاهة فى الحكم تذكر لكاموينس بالثناء والتقدير .

والى جانب مانظمه كاموينس من شعر ملحمى وغنائى فإننا نجد لـ مسرحية كوميدية اقتبسها من المؤلف اللاتينى بلاوتوس Plautus ومسرحيتان سار فيهما على نهج خيل فيسنتى وخمسة خطابات باللهجة العامية غنية بالصور والفكاهة .

النثر :

تتمثل النماذج الأولى للنثر البرتغالى فى المدونات التاريخية . وأول مدونة تستحق الذكر هى المعروفة باسم « المدونة الثانية العامة لإسبانيا Segunda Crorica Geral de Espanha وتعرف أيضا باسم مدونة سنة ١٣٤٤ ، وهى السنة التى جمعت فيها أولاً تحت رعاية أحد أبناء الملك دينيس Dinis وإشرافه ،



وكانت هذه المدونة اقتباساً وتكملة مكتوبة باللغة الجليقية للمدونة الأولى العامة لإسبانيا التي كانت قد ألّفت بإشراف الملك الإسباني ألفونسو العاشر الحكيم . وبين المصادر التي أضيفت منها مادة جديدة على ماورد في الأولى نصوص برتغالية قديمة مفقودة اليوم . ومن بينها تاريخ المؤلف الأندلسي أحمد بن محمد الرزّازي ( المتوفى سنة ٩٥٤ ) ومقدمته حول جغرافية شبه الجزيرة ، وقد ترجم النص العربي إلى البرتغالية ومنها إلى الإسبانية وتعرف باسم *Cronica do Mouro Rasis* ، والمدونة تقص أخبار شبه الجزيرة حتى معركة طريف المعروفة باسم *Rio Salado* سنة ١٣٤٠ التي وقعت فيها الهزيمة على مسلمي المغرب . ودولة غرناطة على يد تحالف مسيحي من قشتالة والبرتغال وقوى صليبية أخرى وتلى هذه المدونة كتب الأنساب أوبيوت الشرف *Nobiliários* وهي لاتقدم إلامادة تاريخية ضئيلة القيمة ولكن أهميتها تكمن في احتوائها على جداول أنساب الأسر المالكة والبيوتات الشريفة .

ومن المدونات التي ترجع إلى القرن الرابع عشر « مدونة فتح الغرب *Crónica da Conquista do Algarve* ، وهي تؤرخ لاستيلاء البرتغاليين على الإقليم الجنوبي من البرتغال من أيدي المسلمين . وأما في القرن الخامس عشر فأهم مدونة تاريخية هي « المدونة العامة لتاريخ البرتغال *Cronica Geral do Reino de Portugal* ، وتعرف باسم مدونة سنة ١٤١٩ وهي سنة تأليفها الأول وتضم عدداً من التواريخ السابقة .

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نشطت الكتابات التاريخية بشكل ملحوظ ، وذلك بسبب الرغبة في تسجيل التوسع الاستعماري الذي اضطلع به المستكشفون والفاثحون البرتغال في مختلف أرجاء العالم ، فهذان القرنان هما اللذان ظهرت فيهما البرتغال على ساحة السياسة العالمية بصفتها قوة بحرية كبرى



واحدى أعتى الدول الاستعمارية . ومن أول مؤرخى هذه الفترة فرنان لوبس **Fernão Lopes** ( ١٣٨٠ - ١٤٦٠ ؟ ) ، وكان موثقاً فى بلاط الأسرة البرتغالية الحاكمة ما بين سنتى ١٤١٨ و ١٤٥٤ ، وعهد إليه بالتأريخ ملوك البرتغال ، فكتب حوليات تسجل أحداث الحقبة الواقعة بين سنتى ١٣٥٧ و ١٤١١ ، وتتميز كتابته التاريخية باستخدام التعبير المباشر ، وتصوير واقع الحياة بكل تفاصيلها مما جعله خير ممثل وشاهد على عصره ، والملاحظ أنه مع تعبيره عن الولاء للبيت المالك لم يقع فى الملق الذى كان سائداً على الكتابات التاريخية فى أيامه ، فالنزاهة والحيدة كانتا من السمات المميزة لكتابه .

وبعد الملك البرتغالى دوم دوارتى **Dom Duarte** نفسه ( ١٣٩١ - ١٤٣٨ ) من كبار المؤرخين ، بدأ حكمة للبلاد فى سنة ١٤٣٣ وعرف برعايته للثقافة والآداب ، وهو الذى شجع المؤرخ فرنان لوبس على كتابة مدونته التاريخية . وقام هو نفسه بتأليف كتاب طريف بعنوان « المستشار الأمين **Leal Conselheiro** » ضمنه مجموعة من التأملات حول الحكم الصالح والسيرة المثالية للملك أو الأميره وكانت أفكاره فى هذا الكتاب ثمرة ملاحظاته الشخصية وتجاربه الخاصة ، فقد كان يرى ذلك أهم من نقل ما فى الكتب من مواعظ ووصايا . وفى الكتاب مقالات تقوم على التحليل النفسى الدقيق للمشاعر الإنسانية مع إيمان قوى بتحكيم العقل فى الغرائز والعواطف . وهو يلح على دور الإيمان بالدين وممارسة العبادات فى بناء الشخصية السوية . والكتاب بوجه عام أكثر احتفالاً بالمحتوى منه بالشكل والأسلوب ، ومع ذلك فقد كانت له مساهمة كبيرة فى خلق لغة نثرية حافلة بالاستعمالات الجديدة لمفردات اللغة . ولدوارتى أيضاً كتاب فى الفروسية . ونلاحظ أخيراً أن الموضوعات التى تناولها دوم دوارتى فى كتاباته تشبه إلى حد بعيد ما كان يكتبه المؤلفون الأندلسيون المعاصرون له فى وصايا الملوك . ويلفت النظر التشابه الكبير بين ماكتبه هذا الملك البرتغالى وبين مؤلفات أديب غرناطى



معاصرله هو على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب « عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة » وكتابه في الفروسية « تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس » و « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ولنا نستبعد أن يكون دوم دوارتي قد استفاد من هذه الكتب وغيرها من مصادر التراث الأندلسي .

ومن مؤرخي القرن الخامس عشر أيضا غومس إيانس دي زرارار Gomes Ianes de Zurara ( ١٤٢٠ - ١٤٧٤ ) الذي أتم في سنة ١٤٥٠ تأليفه لتاريخ الملك جوان الأول الذي بدأه فرنان لوس ، وفيه يؤرخ لاستيلاء البرتغاليين على ميناء سبته المغربي في سنة ١٤١٥ ، هذا وإن كان تفسيره لهذه الحملة بعيداً عن الدقة الموضوعية ، فهو يرجعها إلى الحماسة الدينية التي كانت تستحوذ على طبقة الأمراء والنبلاء الذين اضطلعوا بها من أجل رفع راية الدين وتحت شعار « حرب صليبية » متناسياً العوامل الاقتصادية والشره إلى الغنائم وهو المحرك الحقيقي وراء تلك الحملة البرتغالية الأولى على أرض الشمال الإفريقي . ولهذا المؤرخ مدونة أخرى حول استعمار غينيا Cide Descubrimiento e Conquista de Guiné وهي أشبه بقصيدة مديح عالية النبرة للأمير إنريكي الملاح قائد تلك الحملة .

وإزداد نشاط التأليف التاريخي خلال القرن السادس عشر ، وذلك لرصد التوسع البرتغالي في الهند وبلاد الشرق الأقصى . ونعرف أربعة من المؤلفين في هذا الموضوع أولهم فرنان لوس دي كاستانييدا Fernão lopes de Castanheda ( ١٤٩٠ - ١٥٥٩ ) وكان قد بدأ حياته بالرهبة ، ثم هجر خدمة الكنيسة وانتقل مع أبيه إلى مستعمرة جوا Goa في شبه القارة الهندية حيث عهد إليه بمنصب قضائي . ويبدو أنه تنقل في عديد من بلاد الشرق الأقصى ووصل إلى جزر ملوكاس Moluccas قبل أن يعود للبرتغال في تاريخ غير محدد ( يبدو أنه سنة ١٥٣٨ ) . وشرع في كتابة تاريخ مفصل لامتداد دولة البرتغال إلى بلاد



الشرق . وفى وطنه راجع ماكان قد جمعه من أخبار خلال إقامته فى جوا  
ورحلاته ، وحمله ذلك على جوب البرتغال طولاً وعرضاً متحدثاً مع القواد  
والنبلاء الذين شاركوا فى الحملات وعادوا إلى بلادهم ، وأنفق فى هذه السياحات  
كثيراً من ماله وصحته . وأخيراً عهد إليه بوظيفة متواضعة ، هى أمانة الوثائق فى  
جامعة قلمرية ، وشرع فى تأليف موسوعة كبيرة فى عشرة مجلدات بعنوان  
« تاريخ اكتشاف البرتغاليين للهند وفتوحهم فيها » ونشر منها سبعة مجلدات فى  
حياته ما بين سنتى ١٥٥١ و ١٥٥٤ ، ونشر أحد أبنائه المجلد الثامن سنة ١٥٦١ .  
وأما المجلدان الأخيران فقد صدرتها سلطات التاج البرتغالى لأسباب غير معروفة .  
وترجمت أجزاء عديدة من هذا الكتاب إلى الإسبانية والإنجليزية والإيطالية .  
وأسلوب هذا المؤلف فى الكتابة بدائى خشن وقيمه فيما احتوى عليه كتابه من  
وثائق .

وثانى المؤلفين هو غبار كوريا Gaspar Correia ( ١٤٩٥ - ١٥٦٥ ) ،  
وهو مؤرخ ألف كتاباً واحداً هائل الضخامة لايسهل تصنيفه بعنوان Lendas da  
India أى أساطير الهند . وكان قد غادر بلاده فى سنة ١٥١٢ ورحل إلى الهند  
برسم الخدمة العسكرية وظل بقية عمره متنقلاً بين الهند وبلاد الشرق الأقصى .  
وخلال فترة ما كان أميناً للقائد البرتغالى ألفونسو دى البوركيرك Alfonse de  
Alburquerque وكان مقرباً بعد ذلك من كثير من حكام المستعمرات البرتغالية  
فى الشرق . وعلى الرغم من عنوان كتابه فإنه ليس مجموعة من الأساطير ، بل  
هو أشبه بيوميات كان يكتبها بغير انتظام حول الأحداث التى كان شاهداً عليها فى  
جوا والهند ، فهو رواية تاريخية وإن كان قد لونها ببعض المشاهد الخيالية ، ولهذا  
جاء عمله غنياً بتصوير المشاهد والشخصيات مع تفصيل دقيق للأحداث اليومية  
ووصف لما نخر فى جسد المجتمع البرتغالى ولاسيما مجتمع ماوراء البحار من  
مفاسد ورذائل . ولعل هجومه على أصحاب السلطة والنفوذ هو الذى أدى بهم إلى



قتلة في مالاكاو إلى حظر نشر كتابه هفي أيامه . وقد ظل هذا الحظر سارياً حتى القرن التاسع عشر حينما سمح بنشره لأول مرة .

وثالث هؤلاء المؤلفين هو جوان دي باروس Joãos de Borros ( ١٤٩٦ - ١٥٧٠ ) ، وكان قد تلقى تعليماً طيباً في بلاط الملك مانويل الأول الذي كلفه بكتابة تاريخ التوسع الاستعماري البرتغالي . ويبدو أنه لم يغادر البرتغال باستثناء رحلة له إلى غينيا ( في ١٥٢٢ ) ، وقد التحق بخدمة البلاط أولاً بصفته أميناً ثم مديراً لإدارة المستعمرات الهندية في لشبونة وسمح له ذلك بجمع كل ما كان يلزمه لكتابة ذلك التاريخ الذي أراد أن يكون شاملاً للفتوح البرتغالية في آسيا وأفريقيا وأمريكا مع وصف جغرافي للمستعمرات وبيان لأحوال التجارة مع بلاد آسيا . ومن هذا المشروع الطموح لم يصدر إلا ثلاثة مجلدات طبعت في حياته ، وهي تتناول تاريخ ثلاثة عقود ( ١٥٣٢ - ١٥٦٣ ) ثم نشر مجلد بعد وفاته سنة ١٦١٥ . وبين سنتي ١٥٣٩ و ١٥٤٠ نشر كتابين أحدهما في نحو اللغة البرتغالية من أجل تعليم هذه اللغة لرعايا البرتغال من الأفارقة والهنود ، والثاني كتاب تهذيبي تربوي . وفي ١٥٦٧ اضطره المرض بعد سنوات من العمل المرهق المتواصل في إدارة الهند إلى الاعتزال . ويقسم تاريخ جوان دي باروس باضفاء الثناء المبالغ فيه على الاستعمار البرتغالي متجاهلاً ما كان فيه من مساوئ ، غير أن عمله يعد أساسياً لفهم الحياة البرتغالية خلال القرن السادس عشر بما تضمنه من وثائق رجع فيها إلى مصادر كثيرة عربية وإيرانية وصينية ترجمها له أناس على معرفة جيدة بهذه اللغات .

والكاتب الرابع هو داميان دي غويس Damiãos de Góis ( ١٥٠١ - ١٥٧٤ ) ، هو مفكر ينتمي إلى الجيل المتأثر بالثقافة الإنسانية الشاملة Humanism ثقافة عصر النهضة ، وخدم منذ شبابه المبكر في بلاط الملك مانويل



الأول ، وفى سنة ١٥٢٣ أرسل فى مهام دبلوماسية إلى كثير من البلاد الأوربية . وقضى فى هذه الرحلات عشر سنوات ، وفى ١٥٣٣ عين أميناً مالياً لإدارة الهند ، ولكنه اعتزل هذا المنصب فى السنة التالية وغادر البرتغال مفضلاً الإقامة فى بلاد الشمال الأوربي . وفى ١٥٣٨ تزوج من سيدة ثرية من لاهاي ( هولندا ) وبدأ بالكتابة باللاتينية ، فنشر كتابيه حول : الامبراطورية البرتغالية فى الهند ، و : إثيوبيا والبرتغال فى ظل الملك چوان ، ( ١٥٤٠ ) وهو كتاب استوحاه من لقائه للأسقف الحبشى زاغا زابو Zaga Zabo الذى وفد على بلاط چوان الثالث . وعاد غويس بعد ذلك إلى البرتغال فصار المؤرخ الرسمى للملك مانويل الأول . ومدونته التاريخية حول هذا الملك تعد أهم أعماله . على أن صلته الوثيقة فى أثناء رحلاته الأوربية بمجددى الفكر المسيحى المتحررين مارتن لوتر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ) وإيراسموس ( ١٤٦٦ - ١٥٣٦ ) كانت مما حمل رجال الكنيسة الكاثوليكية على اتهامه بالمروق من حظيرة الدين ، فقبض عليه وأودع السجن فى ١٥٧١ ولكن شيخوخته وخدمته السابقة شفعت له فى النجاة من التعذيب والموت حرقاً . فبعد سنة ونصف من السجن أطلق سراحه بعد استتابته وسمح له بالعودة إلى ضياعه ، ولكنه توفى بعد ذلك بقليل فى ١٥٧٤ .

### ٣ - عصر الركود :

#### ( القرنان السابع عشر والثامن عشر ) :

كانت بداية الأدب البرتغالى قوية بما فيها من تنوع وفحولة وإن اتسمت بما تكون عليه البدايات دائما من خشونة وبداءة ، فقد ولد فى دفء احتكاكه بالأدب العربى الأندلسى الذى أثرى لغته الوليدة ووسّع مجالات التعبير ، واستفاد من تجربة الأدب ٠٠٠ الإشباني : القشتالى والجليقى اذى كان شقيقاً له ومقاسماً إياه فيما غذاه من روافد عربية ، ثم كان وعى الشعب البرتغالى المتزايد بشخصيته هو



الذى جعل هذا الأدب يمضى شيئاً فشيئاً فى طريق الاستقلال بعد أن قدر له حد من النضج واستوى على ساقه .

على أن القرن السابع عشر لا يكاد يهل حتى يدخل هذا الأدب فى فترة من التراجع والركود تستمر خلال القرن التالى وشطرن من القرن التاسع عشر أيضاً . والواقع أن هذا التراجع لم يصب الأدب وحده ، بل شمل التخلف كل مظاهر الحياة فى البرتغال من سياسية واجتماعية وثقافية بوجه عام ، هذا وإن ظلت محتفظة بمركزها بصفاتها دولة استعمارية عتيقة لها من « ممتلكاتها » فيما وراء البحار ما يزيد على مساحتها نحو ثلاثين ضعفاً والغريب أن البرتغال لم تكد تستفيد شيئاً من هذه المستعمرات الهائلة الاتساع ، فقد وصلت إلى العصر الحديث وهى أفقر بلاد أوربا وأكثرها تخلفاً وأعلاها نسبة أمية .

أما أسباب ما انتهى بالبرتغال إلى هذا الوضع فهى كثيرة ، وكان من أولها فقد البلاد لاستقلالها منذ سنة ١٥٨٠ على أثر الهزيمة التى منيت بها جيوشها فى المغرب فى وقعة « وادى المخازن » ( سنة ١٥٧٨ ) وهى التى قتل فيها الملك البرتغالى سباستيان بغير وريث لعرش ، فاتخذ ملك إسبانيا فيليب الثانى من كونه خال الملك القتيل ذريعة للمطالبة بالعرش ، فوجه جيشاً قوياً اقتحم البرتغال واستولى عليها ، وظل الاحتلال الإشباني حتى سنة ١٦٤٠ حينما استردت البلاد استقلالها بعد العديد من الثورات ، ولكنها بقيت تعاني من عواقب الاحتلال حتى نهاية القرن ، ولم تتمكن من إزالة آثاره إلا بمعونة بريطانية وحلف عقده مع إنجلترا سنة ١٧٠٣ ، غير أن هذه الدولة غريمة إسبانيا ومنافستها لم تبذل معونتها إلا لقاء ثمن باهظ هو كثير من الامتيازات التى استنزفت موارد البرتغال وأدت بها إلى فقر متزايد . وأعقب ذلك اضطرابات وثورات استمرت طوال القرن الثامن



عشر وزاد الطين بلة استشرى الفساد فى مؤسسات الدولة وأجهزتها . وعلى حين كانت البلاد الأوربية الأخرى تسير قدماً فى طريق الرقى والتقدم خلال هذا العصر الذى اصطلح على تسميته بعصر التنوير ( Illustration ) كانت البرتغال - ومعها إسبانيا أيضاً - تتركس فى مهاوى التخلف والرجعية فى ظل حكومات مستبدة ونحت وطأة المؤسسة الكنسية ومحاكم التفتيش La inquisition التى كانت لا تكف عن ملاحقة كل فكر متحرر . ولم يكد القرن التاسع عشر يستهل حتى لحقت بشبه جزيرة إيبيريا كارثة أخرى هى الغزو الفرنسى الذى اضطلعت به جيوش نابليون بونابرت على أثر جلأئه عن مصر . وقد وقع ذلك فى سنة ١٨٠٨ وكانت له أيضاً عواقب وخيمة استمرت خلال شطر كبير من القرن التاسع عشر . أما الحياة الثقافية والأدبية فإنه على الرغم من الركود العام الذى أصابها ومن انغلاق البرتغال فإنها لم تنج من التأثر بالطابع الذى ساد الثقافة الأوربية . خلال هذه الفترة ، وهو الفكر الكلاسيكى الجديدة ، وإن كانت ثمرات هذا الفكر فى البرتغال أقل عدداً وقيمة من مثيلاتها فى البلاد الأوربية الأخرى .

### الشعر :

من أول الشعراء الذين عاشوا فى أواخر القرن السادس عشر وامتدت حياتهم إلى القرن التالى اثنان يبدو أنهما من أصل يهودى أولهما فرانسيسكو رودريغس لوبو F. Rodrigues Lobo ( ١٥٨٠ - ١٦٢٢ ) ، وهو ممن أمضوا حياتهم فى ظل الاحتلال الإشباني ، وأهم أعماله الشعرية مجموعة بعنوان Eglogas ( ١٦٠٥ ) وهى مقطوعات غزلية من النوع الذى شاع فى هذا العصر وهو المعروف بالرعويات ، ثم ثلاثة دواوين : الراعى الحاج Pastor peregrino ( ١٦٠٨ ) و الربيع A primaueira ( ١٦٠١ ) و خائب الرجاء



O Desenganado ، ( ١٦١٤ ) وهو فى هذه الثلاثية يصور مباحج الحياة فى الريف بعيداً عن جو المدينة القابض للنفس ، وتشيع فى تلك القصائد روح الحنين الحزينة . ولهذا الشاعر أعمال نثرية أهمها : ليالى الشتاء Noites de Inverno ، و « البلاط فى القرية Corte na Aldeia » ( ١٦١٩ ) وفيها يعبر عن حنينه إلى الأيام التى كان فيها بلاط الملوك فى لشبونة وكانت السلطة فى يد الملك البرتغالى . والكتابان فى صيغة حوارية وفيهما وصف لما ينبغي على رجل البلاط أن يتصنف به ، وتتخلل الحوار مقطوعات شعرية من نوع الرعويات الغنائية . والشاعر الثانى هو جوان بنتو دلفادو Joás pinto Delgado ( توفى فى أمستردام ١٦٣٦ ) ، ويبدو أنه من اليهود الذين هربوا إلى هولندا فراراً من ملاحقة ديوان التفتيش ، والطابع اليهودى أوضح على شعره ، فقد استوحى نظمة من التوراة ، كما يبدو فى « قصيدة الملكة أستير Poema de la reina Esther » و « سيرة راعوث Historia de Rut » ، وألف أيضاً « خماسيات Quintillas » ، نظم فيها مراثى إرمياء شعراً وجدير بالذكر أن شعر بنتو دلفادو كان كله باللغة الإسبانية لا البرتغالية ، وذلك من آثار الاحتلال الإشباني لبلاده .

ومن شعراء القرن السابع عشر أيضاً الراهب أنتونيو داس تشاغاس Frei Antonio das Chagas ( ١٦٣١ - ١٦٨٢ ) ، وكان قد بدأ حياته محارباً فى صفوف الثوار المقاومين للاحتلال الإشباني ، واضطر إلى الفرار إلى البرازيل ثم عاد إلى بلاده فى ١٦٥٦ حيث استمر فى الخدمة العسكرية ، ولكنه قرر اعتناق الرهبنة فى ١٦٦٣ وانضم إلى رهبانية الفرنسيسكان . وكان أثناء خدمته العسكرية ينظم الشعر بالإسبانية على طريقة الشاعر القرطبى الذى ينتمى إلى المذهب الباروكى غونغورا Gongora ( ت ١٦٢٧ ) . وأهم أعماله مجموعته الشعرية « الفينيق العائد إلى الحياة Fénix Renascida » ، وعرف تشاغاس بعد اختياره



الرهينة بمواعظه البليغة المثيرة التي تأثر فيها بالصوفية الإسبانية ، وله مجموعة  
نثرية من « الرسائل الروحية Cartas Es pirituais » ، قصد بها إلى التبشير  
بالمسيحية ، وتكثر فيها الصور الحربية ، وأسلوبه فيها مثل أسلوبه الشعري بأروكي  
الطابع مثقل بالصور والاستعارات البعيدة والزخارف اللفظية المعقدة .

وأما شعراء القرن الثامن عشر فيعد من طليعتهم بدرو أنتونيوكوريا غارسون  
Pedro Correia Garcão . وكان قد بدأ بدراسة القانون في جامعة قلمرية ،  
ولكن تكوينه الجسمي الضعيف حال بينه وبين مواصلة الدراسة ، فعاد إلى لشبونة  
حيث تزوج من أرملة غنية عاش في ضيعتها . ومن خلال زواجه وصل إلى  
منصب في إدارة الهند ، ومكنته هذه الحياة الرخية من ممارسة هوايته الشعرية ،  
وكان ينظم على طريقة الكلاسيكيين الجدد متأثراً بهوراس بصفة خاصة ، وأثارت  
قصائده إعجاب معاصرة ، فدعى إلى الانضمام للجماعة الشعرية المعروفة باسم  
« الأركاديا البرتغالية Arcádia Lusitana » التي كتب في منشوراتها مجموعة من  
المقالات النقدية حول فن الشعر تبع فيها آراء الأساتذة الكلاسيكيين الإغريق  
والرومان . وتحت تأثير فيرجيل كتب مسرحيتين حول حياة الطبقة البورجوازية  
وعاداتها مترسماً فيهما خطوات المسرح الروماني . غير أن عهد الحياة الناعمة  
الرغبة انتهى فجأة حينما خسر الشاعر قضيته في المحاكم حول ثروة زوجته ، ثم  
قبض عليه سنة ١٧٧١ وآلت أحواله إلى الفقر . وفي هذه المرحلة من حياته اتجه  
إلى الزهد الرواقى وصاغ قصائد عديدة يتحدث فيها عن تقلب الدنيا وتصاريف  
القدر . وألح عليه المرض وهو في سجنه حتى وفاته . وقد نشرت أعماله الشعرية  
الكاملة بعد موته سنة ١٧٧٨ ثم أعيد طبعها مراراً بعد ذلك .

ومن شعراء هذا الجيل أنتونيوكوريس داكروز سيلفا Antonio Dinis de  
Cruz e silva ، وهو أيضاً ممن درسوا القانون في قلمرية ، وعين قاضياً في



مدينة إلبش Elvas ( ١٧٦٤ ) ، وحظى بتقدير كبير من رؤسائه ، فأرسلوه إلى البرازيل في مهمة خطيرة هي التحقيق في مؤامرة للتمرد على نظام الحكم في الولاية ( ١٧٩٢ ) . وكان سيلفا قد بدأ في كتابة الشعر قبل تخرجه من الجامعة وأصبح له صيت ذائع بفضل قصيدته الساخرة التي حاكى بها الشعر الملحمي وهي « هيسوب O Hissope » ، التي نظمها أثناء إقامته في إلبش ، وكانت المدينة مسرحاً لجدل بين أسقف المدينة ونائبه حول قواعد الآداب الاجتماعية ( الإيتيكيت ) . فاعتنم سيلفا الفرصة لكي يتخذ من الموضوع مادة للسخرية من القيم التي كانت في طريقها للانحلال في ظل انحلال النظام الإقطاعي الذي حاول القضاء عليه المركيز دي بومبال De Pombal رئيس الوزراء في عهد الملك جوزيه الأول . وقد نظمت القصيدة في سنة ١٧٦٨ ، ولكنها لم تنشر بسبب ما فيها من تعريضات لاذعة تمس بعض الشخصيات الكبيرة ، وإن كانت القصيدة واسعة الانتشار في الأوساط الأدبية ، وحينما نشرت لأول مرة في باريس سنة ١٨٠٢ كانت قد أقيمت فيها إضافات كثيرة ليست للمؤلف . كذلك نشر سيلفا شعراً كثيراً بالأسلوب الكلاسيكي الجديد . وكانت وفاته في مدينة ريو دي جانيرو عاصمة البرازيل .

ومنهم فيلينتو إيليسيو Filinto Elisio ( ١٧٣٤ - ١٨١٩ ) الذي كان زعيماً للاتجاه الكلاسيكي الجديد الذي اصطنعته الجماعة الشعرية المعروفة باسم « شاطي » ، المراكب Grupo da Ribeira das Naus ، وكانت هذه الجماعة منافسة لتلك الدعوة بـ « الأزكارييا البرتغالية » ، التي تزعمها توريا غارسون وسيلفا ، وإن كانت الجماعتان تنتميان لنفس الاتجاه الأدبي . وكان إيليسيو قد وشى به إلى محكمة التفتيش بسبب نقده للسلطات الكنسية ، فهرب إلى الهافرثم إلى باريس حيث وثق صلاته بالشاعر الرومانسي لامرتين . وهو يعد آخر الشعراء الذين حافظوا على



الاتجاه الكلاسيكى ، وإن كان شعره يعد مرحلة انتقالية بين الكلاسيكية والرومانسية . وكان إيليسيو غزير الإنتاج فقد ألف خلال حياته الطويلة عدداً كبيراً من القصائد والمقطوعات الهجائية الحكيمة والرسائل . ومن أهم أعماله الرسالة الطويلة التى كتبها وهو فى الثانية والثمانين وأودعها نظريته الشعرية ( Da Arte Poetica ) ( Portuguesa ) . وقد نشرت أعماله الكاملة بين سنتى ١٨١٧ و ١٨١٩ ، وفيها يعبر عن معارضة الفكر الكنسى المتحجر ويشيد بالاتجاه التحررى الذى نادى به الثورتان الفرنسية والأمريكية .

ويشبه هذا الشاعر فى نزعتة الساخرة تولنتينو دى ألميدا Tolentino de Almeida ( ١٧٤٠ - ١٨١١ ) ، وكان أيضاً من خريجي جامعة قلمرية واشتغل بالتدريس فى ظل نظام بومبال المستنير ، وبعد سقوط هذا الوزير فى سنة ١٧٧٧ عهد إليه ببعض المناصب ، وأصبح عضواً فى المجتمع البرتغالى سنة ١٧٨٠ ، واشتهر بأشعاره الهجائية التى سخر فيها من العادات البرتغالية السائدة فى مجتمعه .

وأشهر الشعراء الذين مهدوا بقوة لتطور الحركة الشعرية من الكلاسيكية إلى الرومانسية اثنان : أولهما توماس أنتونيو غونزاغا Tomás António Gonzaga ( ١٧٤٤ - ١٨١٠ ) وهو شاعر كان له تأثير كبير فى الشعر البرتغالى على الرغم من أنه قضى معظم حياته خارج البلاد . ولد فى أويورتو وتخرج من جامعة قلمرية حيث درس القانون ، وعمل فترة فى مدينة باجة Beja ، ثم انتقل إلى البرازيل حيث تولى منصباً قضائياً فى الولاية البرازيلية مينايس جيرائيس Minas Gerais ، ثم اتهم بالتمرد وحكم عليه بالسجن ثم النفى إلى أنغولا وبعدها بعشر سنوات أيضاً فى موزمبيق ، على أنه أثر أن يستقر فى هذه المستعمرة بعد أن أصهر إلى أسرة ثرية هناك . وكان غونزانما أثناء إقامته فى البرازيل رأساً



لمجموعة من الشعراء البرازيليين المنتمين للمذهب الكلاسيكي الجديد ، ولما في  
موزمبيق فقد كان يعد زعيم الشعراء الغنائيين الذين أنجبهم المستعمرون .  
ومجموعته الشعرية « ماريليا دي ديرسيو Marilia de Dirceu » ( وماريليا  
مستعار لفتاة برازيلية ) تعد أكثر مجموعات الشعر البرتغالي انتشاراً بعد ديون  
البرتغاليات ، لكاموينس . وكان نشر هذه المجموعة في لشبونة سنة ١٧٩٢ .

والشاعر الثاني الذي يعد أبرز شعراء البرتغال في القرن الثامن عشر وقائد  
الحركة الممهدة للرومانسية هو مانويل ماريا باربوسا دي بوكاج Manuel Maria  
Barbosa do Bocage ( ١٧٦٥ - ١٨٠٥ ) ولد في Setubal ( في جنوبي  
البرتغال واسمها الأندلس شطوبر ) وعاش طول حياته بوهيميا متشرداً ، ثم انخرط  
في سلك جنود المشاة متطوعاً ، ثم في البحرية ، وقادته رحلاته إلى البرازيل ثم  
إلى جوا ومكاو . وبعد عودته إلى لشبونة في ١٧٩٠ التحق بالجامعة المسماة  
« الأركاديا الجديدة Nova Arcadia » ، وهي التي سميت بعد ذلك « أكاديمية  
الفنون الجميلة Academia das Belas Artes » ونشر المجلد الأول من  
ديوانه ( Rimas ) في السنة التالية ، فحظى بتقدير كبير من شعراء عصره من  
أمثال فيلانتو إيليسيو والمركيزة دي ألورنا De Alorna ، غير أنه بسبب آرائه  
المتحررة المعادية للكنيسة أودع السجن في ١٧٩٤ ، وبعد أن استتيب وأطلق سراحه  
في ١٧٩٩ نشر المجلد الثاني من ديوانه ثم المجلد الثالث في ١٨٠٤ ، ويتمم شعره  
بالتشاؤم والشكوى ، وهو متأثر في فكره بالأدبيين الفرنسيين فولير وروسو .

النثر :

لم يكن حال النثر خيراً من حال الشعر خلال هذه الفترة الطويلة التي امتدت  
على مدى أكثر من قونين ، فلم يظهر من الكتاب الذين يعتد بنتائجهم النثرى إلا



عدد قليل ، ونتج عن الاحتلال الإسباني للبرتغال أن الجيل الأول من المؤلفين كانوا مزدوجي اللغة : يكتبون بالبرتغالية والإسبانية ، وترتب على سطوة الكنيسة ونفوذها على الحياة الثقافية أن كان أبرز المؤلفين من رجال الدين ، وكان أكثرهم متحجر الفكر ، إن لم يمنع ذلك أن يظهر منهم من يستثنى من هذه القاعدة بحكم اتصاله بتيارات الفكر التنويري في البلاد الأوربية الأخرى .

من المنتمين إلى الجيل الأول الذي عاش في ظل الاحتلال الإسباني فرانسيسكو مانويل دي ميلو ( ١٦٠٨ - ١٦٦٦ ) ، وهو مؤرخ ومؤلف مسرحي وشاعر ورجل دولة ، كان ينحدر من أسرة أرستقراطية وتلقى تعليمه في مدريد حيث عمل في خدمة البلاط الإسباني ، فقد عهد إليه بمهام سياسية كبيرة كان من أولها العودة إلى البرتغال من أجل تهدئة خواطر الناس الذين أثارتهم الضرائب المجحفة ، ثم أرسل إلى الأراضي الواطئة ( هولندا ) على رأس كتيبة برتغالية للقتال في صف الجيوش الإسبانية ، ثم في مهمة ثالثة إلى قطلونية لإخماد ثورة نشبت هناك سنة ١٦٤٠ . وقد قص علينا أخبار هذه المهمات في كتابين له أحدهما بالإسبانية ( في ١٦٤٥ ) والآخر بالبرتغالية ( ١٦٦٠ ) . وبعد أن استردت البرتغال استقلالها تمرد على السلطة الإسبانية وأصبح من المدافعين عن قضية الملك الجديد جوان الرابع المنحدر من أسرة براغانزا Bragança البرتغالية وحاول التعاون مع النظام الجديد ، غير أن الشكوك كانت تحوم حول ولائه للملكية البرتغالية ، فقبض عليه وسجن ، ثم نفى إلى البرازيل . وفي ١٦٥٨ عاد إلى البرتغال ، وعمل الملك جوان على تقريبه ، فعهد إليه ببعض المهام الدبلوماسية ، وأصبح عضواً في « أكاديمية الكرام Academia dos Generosos » ، وهي إحدى المؤسسات التي كانت معنية بالثقافة والفنون . وكتب ميلو كثيراً بالإسبانية



والبرتغالية ، ومن مؤلفاته « دليل المتزوجين Guia de casados » ، ( ١٦٥١ ) وفيه يقدم وجهة نظره المتسمه بالرجعية الشديدة حول العلاقة بين الرجل والمرأة وله ثلاث روايات قصيرة تشبه ذلك اللون المعروف بأدب الشطارة literatura Picaresca ( المتأثر بأدب المقامات العربية ) ، وهى بعنوان « أماتيل حوارية Apologos Dialogais » ( نشرت بعد موته فى ١٧٢١ ) وفيها يهاجم السياسيين المعاصرين - ويندد بفساد الحكومات . وله كوميديا ساخرة بعنوان « النبيل المتأدب Fidalgo Aprendiz » ، وفيها يسخر من النبلاء المفلسين ( وهو موضوع شاعت الكتابة فيه بين الأدباء الإسبان المعاصرين ) . وله كتاب نقدى هو « مصحة الآداب Hospital das Letras » ، وفيه يستعرض أبرز أعلام الوسط الأدبى فى إسبانيا والبرتغال ويصدر عليهم أحكاما النقدية . ونظم ميلو قصائد تأثر فيها بانجاء الشاعر الإسباني غونفورا ومذهبه الباروكى والخلاصة أنه من خير من يمثلون الثقافة الأرستقراطية فى النصف الأول من القرن السابع عشر .

ومن أبرز كتاب القرن السابع عشر أنتونيو فييرا Ant6nio Vieira ( ١٦٠٨ - ١٦٩٧ ) وكان من رجال الكنيسة ، منتمية إلى طائفة اليسوعيين ( الجيزويت ) ولد فى عائلة متواضعة ، وفى ١٦١٤ رحل فى صحبة والديه إلى البرازيل ، فحل فى مدينة باهيا Bahia حيث أتم تعليمه ، ثم انخرط فى سلك الرهبنة فى ١٦٢٣ ونصب قسيساً فى ١٦٣٤ وسرعان ما ذاع صيته فى المستعمرة بصفته خطيباً مفوهاً حتى أصبح أشهر وعاظ البرازيل . وفى ١٦٤١ عاد إلى البرتغال فى وفد لتقديم الولاء للملك جوان الرابع ، وكان فييرا يعتقد أن هذا الملك سوف يحقق نبوءات الملك سباستيان ( قتل معركة وادى المخازن ) التى كانت منتشرة فى البرتغال . وحتى بعد وفاة جوان الرابع ظل مؤمناً بأن سباستيان



سوف ينشر من قبله لكي يفتح عهد المملكة المسيحية الخامسة التي بشرت بها الثورة والتي سيملاً فيها العالم عدلاً بعد أن ملئ جوراً ، تحت راية البرتغال . وازداد نفوذ فييرا في البلاط منذ أن عين مستشاراً للملك فيما يتعلق بشئون البرازيل ، وعهد إليه بمهام سياسية في فرنسا وهولندا وروما ( بين ١٦٤٦ و ١٦٥٠ ) وفي ١٦٦٢ حدث انقلاب في القصر الملكي ترتب عليه فقد نفوذه في البلاط ، وقبضت عليه محكمة التفتيش بعد ذلك بسبب تجاوزه الحدود في أعماله التبشيرية وبسبب دفاعه عن ، المسيحيين الجدد ، أي معتنقي المسيحية من طائفة اليهود المعروفين باسم ، المارانوس Marranos ، وأدين في ١٦٦٧ ولكن انقلاباً آخر أعاد أصدقاءه إلى السلطة ، فأطلق سراحه ولكنه لم يعد أبداً إلى مباشرة نفوذه القديم في القصر . وبين ١٦٦٩ ، ١٦٧٥ أقام في روما حيث استرد صيته السابق بصفته واعظاً ومبشراً . وفي ١٦٨١ بعد زيارة للشبونة رجع إلى البرازيل بعد أن أصابته خيبة الأمل من شئون البلاط البرتغال . وظل في مدينة باهيا حتى وفاته . ويصفه النقاد بأنه - على الرغم من سذاجة فكره - خير كاتب بالبرتغالية على طول القرن السابع عشر ، حتى إنه يعد في ميدان الكتابة النثرية قريناً لكامونيس في الشعر وما زالت خطبه تقرأ اليوم وتثير الإعجاب كما كانت تثيره حين كتبت منذ أكثر من ثلاثة قرون .

ومن رجال الدين أيضاً مانويل برناردس Manuel Bernardes ( ١٦٤٤ - ١٧١٠ ) ، ولد في أسرة من الطبقة الوسطى ، وتخرج في جامعة قلمرية متخصصاً في الفلسفة والقانون الكنسي ، ومؤلفاته كلها تكاد تكون مواعظ ودروساً دينية وروحية ومنها ، النور والحرارة Luz e Calor ، ( ١٦٩٦ ) و ، تجارب روحية Exercícios Espirituais ، ( ١٧٠٧ ) و ، الأهداف الأخيرة لحياة الإنسان



Os Ultimos Fins de Homem ، ( ١٧٢٨ ) ، على أن اسمه يرتبط دائماً بكتاب  
المقتطفات الجديدة Nova Floresta ، ( ١٧٠٦ - ١٧٢٨ ) في خمسة أجزاء ،  
وهو مجموعة كبيرة من الحكايات اقتبسها وهذبها من عدد كبير من المصادر ،  
وقصد بجمعها تقديم دروس تهذيبية وتربوية ، ورتبها على حروف الهجاء حسب  
الموضوعات ، ولكنه لم ينجز منها إلا المواد التي وصل بها إلى حرف الـ ل .  
وتتميز هذه المجموعة بأسلوبها الأدبي المتقن وبقدرة مؤلفها على حبك القصة ،  
غير أن يرnardس كان من السذاجة وسلامة الطوية بحيث كان يصدق كل الخوارق  
التي ينسبها لأبطال قصصه وهم في الغالب من القديسين والصلحاء .

وربما كان الأديب الوحيد الذي كان على قدر كبير من التحرر الفعلى خلال  
هذه الفترة على الرغم من انتمائه للمؤسسة الكنسية هو لويس أنتونيو قرني Luis  
António verney ( ولد سنة ١٧١٣ وتوفي بعد ١٧٧٢ ) ، وكان قد درس  
اللاهوت في جامعة يابرة Evora ثم القانون المدني في جامعة روما . وفي إيطاليا  
كان يتردد على دوائر المثقفين من أعلام التنوير . وكان من المؤمنين بفلسفة لوك  
Locke ومنهج التجريبيين الإنجليز وغيرهم من الأوربيين . وحينما عاد إلى  
البرتغال في ١٧٤٢ أصبح رئيساً لقساوسة كاتدرائية يابرة Evora . ودعاه الملك  
جوان الخامس للمشاركة في تطوير مناهج التعليم البرتغالية ، فنشر ست عشرة  
رسالة تحت عنوان : المنهج الحقيقي للتعليم O Verdadeiro Metods de  
Estudar ، ( ونشرت في خمسة مجلدات في ١٧٤٦ ) ، وتتضمن هذه الرسائل  
نقدًا عنيفاً لطريقة التعليم اليسوعية التي تقوم على البلاغيات الفارغة ، ودعوة إلى  
برنامج تعليمي جديد يقوم على دراسة عقلية للحقائق الواقعة مع استخدام المنهج



التجريبي ، ولهذا فإنه دعا للاهتمام بالعلوم الطبيعية وفي ميدان الطب نادى باستخدام التطبيق العملي بدلاً من النظريات التي لم تعد تلائم العصر . كذلك نقد فيرنى بشدة ما كان يعتمد إليه المربون من تملق للمؤلفين الكلاسيكين ، كما دعا إلى دراسة اللغات الأوربية وآدابها . وأما التراث الأدبي والفنى الموروث عن القرن السابع عشر وهو المنتمى إلى المذهب الباروكى Barroquism فقد كان فيرنى عنيفاً فى نقده بحكم مهاجمته لكل ضروب الصنعة والتكلف فى التعبير الأدبي ، حتى إنه أبدى احتقاره للشعر بصفته نوعاً أدبياً . وبعد كتاب فيرنى المذكور أهم عمل فكرى أنتجته البرتغال خلال القرن الثامن عشر . وكثير من الآراء التى طرحها كان لها تأثير كبير فى الحياة التعليمية والثقافية وقد أخذ بها الدكاتور المستنير ورئيس الوزراء بومبال Pombal فى سنة ١٧٧٢ حينما اضطلع بتطوير الدراسة فى جامعة قلمرية .

وأخيراً نشير إلى مجموعة مجهولة المؤلف من المقالات والحكايات النثرية الهجائية حول السياسية والأخلاق تعد من أهم نماذج النثر خلال القرن السابع عشر ، وقد نشرت هذه المجموعة فى لشبونة سنة ١٦٥٢ ، واختلفت آراء الباحثين حول شخصية مؤلفها دون أن يصلوا إلى حل لهذه المشكلة ، على أن الباحث البرازيلى ألفونسو بينا جونيور Alfons o penã Junior استطاع أن يدلل ببراهين مقنعة على أن المؤلف الحقيقى هو أنتونيو سوسادى ماسيدو António Sousa de Macedo وكان ماسيدو سفيراً للبرتغال فى لندن لدى الملك البريطانى تشارلز الأول ، وكان هو المخطط لسياسة بلاده الخارجية بعد انتهاء الاحتلال الإشباني للبلاد ( ١٥٨٠ - ١٦٤٠ ) ، ولهذا فقد كان أقدر الناس على معرفة مواطن الأحوال فى المجتمع البرتغالى أثناء الاحتلال ، والإطلاع على الفساد والخيانات التى



أفضت إلى الكارثة وتدور الحكايات حول فساد الذمم لأولئك الموظفين وكبيل الضباط الذين كانوا يتولون تزويد القوات البرتغالية بالأسلحة أثناء الحرب مع إسبانيا . وكان هؤلاء قد استطاعوا جمع ثروات هائلة نهبوها من خزانة الدولة ومارسوا ارتشوا به لقاء معونتهم للفاثحين الإسبان على حساب قضية بلادهم الوطنية . فكانت هذه الحكايات التي نشرت بعنوان « فن السرقة Arte de Furtar » ، هجاء لاذعاً لهؤلاء الرجال وكشفاً عن مؤامراتهم وحيلهم .

#### ٤ - الرومانسية والواقعية :

#### ( القرنان التاسع عشر والعشرون ) :

خلال القرن التاسع عشر استمرت الفوضى ضاربة أطنابها على البلاد وتوالت عليها الكوارث ، فقد ابتليت بغزو نابوليون يونابرت في سنة ١٨٠٨ ، ولم تكد تخلص من هذا الاحتلال حتى دخلت البرتغال في دوامة من الصراع الميريبين الليبراليين المنادين بصيغة ديمقراطية للحكم والرجعيين المتمسكين بالحكم الملكي المطلق . وفي أثناء ذلك الصراع نالت البرازيل استقلالها سنة ١٨٢٢ ، وبذلك فقدت البرتغال أكبر مستعمراتها وأغناها ، وتداول المحافظون والليبراليون حكم البلاد ، ووصل الصدام بين الفريقين إلى نشوب حرب أهلية من سنتي ( ١٨٣٢ و ١٨٣٧ ) ، وأعقب ذلك فرض كوستا كابرال حكم الدكتاتوري ( ١٨٤٢ - ١٨٥١ ) ، على أن الليبراليين عادوا للحكم في ١٨٥٦ ونعمت البلاد بفترة من الهدوء النسبي استمرت عدة سنوات ، غير أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي أدت بالبلاد إلى الإفلاس حملت الملك كارلوس الأول على حل البرلمان وإلغاء الدستور ومحاولة علاج الأوضاع المتدهورة بحكومة دكتاتورية تولى رياستها جوان فرانكو ، غير أن ذلك أثار ثائرة الليبراليين



المتشددون الذين أغتالوا الملك وولى ولى عهده فى ١٩٠٨ . ومع أن الملك الجديد مانويل اتبع سياسة ليبرالية حاول بها وضع حد للفوضى السائدة فإنه خلع عن العرش وأعلنت الجمهورية فى ١٩١٠ . ولم يستطع النظام الجديد إصلاح ما أفسدته عقود طويلة من حكم ساسة لاحظ لهم من الكفاءة وفى ظل تناحر حزبى مرير ، فتعاقبت الثورات والانقلابات ، ورزحت البلاد تحت وطأة حكم دكتاتورى جديد فى ١٩٢٦ ، وفى ١٩٣٣ قبض على مقاليد الحكم الدكتاتورى أوليفيرا سالازار Oliveira salazar الذى أعلن ماسماه « بالدولة الجديدة » ، فحكم البلاد حكماً مطلقاً أعاد إليها بعض الصلاح ، وكان نظيراً لجاره وقرينه الجنرال فرانكو دكتاتور إسبانيا واستمر حكم الرجلين متحالفين على مدى نحو أربعين سنة حتى أوائل السبعينيات حينما توفى كلاهما . وبوفاة سالازار عادت البرتغال إلى الأخذ بنظام ديمقراطى برلمانى يقوم على تعدد الأحزاب وإطلاق الحريات .

على الرغم من هذه الصورة القائمة للمجتمع البرتغالى خلال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين فى ظل نظام ملكى متهرىء ثم جمهورية تعصف بها الثورات والانقلابات - فإن الحياة الثقافية والأدبية عادت إلى شىء من الانتعاش بعد عصور متطاولة من التأخر والركود . وكان ذلك بفضل عدد من المفكرين والأدباء الذين حاولوا كسر طوق الانغلاق الذى فرضته على البلاد حكومات مستبدة ونظام كنسى رجعى ، فاتصلوا بالتيارات الفكرية المتعاقبة فى البلاد الأوربية المجاورة .

### الشعر :

بعد ألميدا غاريت Almeida Garret ( ١٧٩٩ - ١٨٥٤ ) من أبرز الأدباء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان رجل دولة وكاتباً مسرحياً وقصصياً بالإضافة إلى نشاطه الشعرى الذى انتصب فيه مجدداً للشعر البرتغالى



ورائدًا من رواد الرومانسية . وكان قد درس القانون في جامعة قلمرية ( ١٨١٦ - ١٨٢٠ ) ، ثم انخرط في سلك الحركة الليبرالية التي ألهمته نظم أناشيد ذات طابع سياسي . ولكن رد الفعل الرجعي الداعي إلى الحكم المطلق أدى به إلى المنفى في ١٨٢٣ ، فلبأ إلى إنجلترا ثم إلى فرنسا حيث توثقت صلاته بالرومانسيين وبدأ ذلك في قصيدته « كاموينس Camões » ( ١٨٢٥ ) و « دونا برانكا Dona Branca » ( ١٨٢٦ ) . وكان في البداية من الجناح الليبرالي المتشدد الذي تألف منه حزب المهاجرين ، ولكنه بعد ذلك انخرط في صفوف المعتدلين ، والتحق بالجيش الليبرالي الذي عبأه بدرو الرابع في جزر الأزور في سنة ١٨٣٢ ، واشترك في حصار أويورتو ( ١٨٣٣ ) وأرسل في مهام دبلوماسية ممثلاً للحركة الليبرالية ، وحينما تم انتصار هذه الحركة في ١٨٣٧ عاد إلى البرتغال وشارك في نشاط سياسي كبير بصفته عضواً في مجلس النواب أما نشاطه الأدبي فقد تمثل في جهوده لخلق مسرح برتغالي وطني ، فأسس أكاديمية للفن المسرحي ، وشرع في تأليف روايات مسرحية منها « تمثيلية دينية لخييل فيسنتي Um Aute Gil Vicente » و « حلاق شنترين O Alfageme de Santarem » ( ١٨٣٨ - ١٨٤٠ ) . غير أن الحكم الدكتاتوري الذي تزعمه كوستا كابرال ( ١٨٤٢ - ١٨٥١ ) أرغمه على الابتعاد عن السياسة ، فقصر نشاطه على العمل الأدبي ، وإلى هذه الفترة يرجع نشره لمجموعة قصائده « Romanceiro » ( ١٨٤٣ ) و « قوس القديسة آنا OArco de sant' Ana » ( ١٨٤٥ ) وهي قصيدة تاريخية . وعمله النثري الذي يعد خير مؤلفاته هو « سياحات في أرض بلادي As Viagens no Minha terra » ( ١٨٤٦ ) ، وهو لوحات من سيرته الذاتية . كذلك نشر مجموعة من الشعر الغنائي الغزلي « أوراق الشجر الساقطة Folhas Caidas » ( ١٨٥٣ ) . وحينما سقط نظام كابرال عاود غاريت نشاطه السياسي ، ومنح لقب



فيكونت في ١٨٥١ وأصبح وزيراً للخارجية في ١٨٥٢ وقد تميز غاريت في كل نشاطه السياسي والأدبي بالرغبة في التجديد مع الحفاظ على الهوية القومية البرتغالية .

ومن شعراء القرن التاسع عشر من تقلبوا بين المذهب الكلاسيكي والرومانسي مثل أنتونيو فيليسيانو كاستيليو António Feliciano Castilho ، ( ١٨٠٠ - ١٨٧٥ ) عى وهو في السادسة من عمره ، وتخرج في جامعة قلمرية متخصصاً في القانون الكنسي ، ووجه كثيراً من جهوده لترجمة أعمال أدبية بارزة إلى البرتغالية ، ولمحاكاة شعر بوكاج النيوكلاسيكي . ومن أول أعماله الربيع A Primavera ، ( ١٨٢٢ ) و حب وحنين Amor e Melancoliá ، ( ١٨٢٨ ) . ومع أنه نظم بعض شعره على طريقة الرومانسيين مثل ديوانه ، ليلة القلعة A Noite ds Castelo ، ( ١٨٣٨ ) فإنه لم ينتسب لهذا المذهب الجديد إلا فترة قصيرة . وفي ١٨٤٢ تولى رئاسة تحرير ، المجلة اللشبونية العالمية Revista universal Lisbonense ، فاتخذها منصة يوجه منها سهام نقده الشديد للشعراء الرومانسيين . وفي ١٨٤٤ نشر كتابه النقدي ، حفريات شعرية Excavações Poeticas ولعله أهم أعماله . وتحول كاستيليو منذ الستينيات إلى الحاكم بأمره في الوسط الأدبي ، وأصبحت المقدمات التي يكتبها لدواوين الشعراء الشباب بمثابة إجازة بالنشر . على أن ما أصدره في أخريات عمره لم يلق من الإقبال ما كان يلزم أعماله الأولى .

ومنهم جوان دي ديوس Joãos de Deus ( ١٨٣٠ - ١٨٩٦ ) ، تخرج في جامعة قلمرية حيث درس الحقوق ، وكانت طبيعته المرحية وحياته البوهيمية قد أكسبته شعبية كبيرة وهو لا يزال طالباً . وفي ١٨٦٩ نشر أول دواوينه ، أزهار الحقل Flores de Compo ، الذي تلقاه الجمهور والنقاد بالحفاوة والثناء بسبب وضوح



لغته وجمال صياغته البسيطة في الوقت الذي كان التكلف البلاغي والطابع البكتري يغلبان فيه على الشعر الرومانسي ، ثم أصدر ديوانه الثاني بعنوان « حقل الأزهار » Campo de Flores ، ( ١٨٩٣ ) . وكان من سنة ١٨٧٦ قد شرع في إعداد منهج لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، واستطاع هذا المنهج أن يصبح هو الذي قررته السلطات التعليمية على المدارس . ومازال كثير من آراء جوان دي ديور متبعاً في المدارس العديدة التي تحمل اسمه .

ويعد شعر توماس أنتونيو ريبيرو Tomás Antonio Ribeiro ( ١٨٣١ - ١٩٠١ ) بداية قوية للشعر السياسي المعبر عن الروح القومية ، وذلك بديوانه « ديم جايمة » Dom Jaime ، وهو يتألف من تسع قصائد يقص فيها الشاعر كفاح شاب من النبلاء يقود حركه المقاومة للاحتلال الإسباني للبلاد في أيام فيليب الثاني . ولهذه المجموعة الشعرية دلالة رمزية وإن كانت رومانسية الأسلوب لأن الشاعر - مع تناوله حدثاً تاريخياً ماضياً - أراد أن يعبر بها عن معارضته للفكر السياسي الذي ظهر في أيامه والذي كان يدعو لوحدة شبه جزيرة إيبيريا ويلاحظ عليه فيها تأثيره بفيكتور هوغو في دعوته للعدل الاجتماعي وللتعايش الإنساني . ومن المفارقات أن هذه القصائد على الرغم من روحها الرومانسية ومن « التزامها » الواضح فقد ظفرت بمديح مبالغ فيه من قبل الشاعر النيوكلاسيكي كاستيليو الذي كان قد تنكر لها تين الخصيصتين : الرومانسية والالتزام . ولريبيرو مجموعة شعرية أخرى بعنوان « ألحان تمر Sans que Passam » ، ( ١٨٦٨ ) في عشر قصائد نرى فيها اقتراباً من الطابع الواقعي في موضوع سياسي مشابه لموضوع الديوان الأول .

وللشاعر الصحفي غليزرم دي أزيڤيدو Guilherme de Azeveds ( ١٨٨٢ - ١٨٣٩ ) مكانة خاصة في عالم الأدب البرتغالي خلال منتصف القرن



تاسع عشر ، ومجموعته الشعرية الأولى ، أشباح **Aparições** ، ( ١٨٦٧ ) تضم شعراً عاطفياً على طريقة لامرتين ، ولكنه فى ظل تأثيره بفيكتور هوغو ويتوجيه من المبادئ التى كان ينادى بها أنتيرو دى كنتال أصبح شاعراً ، ملتزماً ، فى مجموعته الشعرية ، إشعاعات الليل **Radiações da Noite** ، ( ١٨٧١ ) ، وتزايد هذا الاتجاه عنده فى مجموعته الثالثة ، الروح الجديد **Alma Nova** ، ( ١٨٧٤ ) التى ظهر فيها تأثيره بديوان ، أزهار الشر ، للشاعر الفرنسى بودلير ، وإن كان فيها قد تجرد من الرؤية الميتافيزيقية التى تميز بها الفرنسى . وفى هذه المجموعة الأخيرة يتحدث الشاعر البرتغالى عن التباين الطبقي بين الأغنياء والفقراء فى مجتمع المدينة ، مدخلاً فى شعره عناصر شيطانية وصوراً مفزعة للأحداث والقبور . ويعد أزيقيدو مع أنتيرو رائداً لما سمي « بالمذهب الجديد ، **Escola Nova** الذى سوف يأخذ به الجيل التالى .

فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ تيار الرومانسية فى الانحسار عن الأدب البرتغالى الذى لم ينج من تأثير ماكان يضطرب فى القارة الأوروبية من مذاهب جديدة كانت الواقعية أقواها تأثيراً فى أدباء البرتغال . وأبرز من يمثلون هذا الاتجاه الجديد أنتيرو دى كنتال ( ١٨٤٢ - ١٨٩٢ ) **Antero de Quental** ، وهو شاعر ومفكر ولد وتوفى فى جزيرة أزورس . وكان يسارى الفكر على الرغم من نشأته فى أسرة أرستقراطية ومن تلقيه تربية كاثوليكية . غير أنه أثناء دراسته فى جامعة قلمرية كشف عن ثورة على أوضاع مجتمعه تحول معها إلى الفكر الاشتراكي . ومن هنا كان إعلانه يرفض الأدب الرومانسى الشائع فى أيامه ومنااداته بالوظيفة الاجتماعية للأدب ، معبراً عن ذلك فى ديوانه ، أغاني حديثة **Odes Modernas** ، ( ١٨٦٥ ) ويعد كنتال الروح المحركة لما يعرف باسم « جيل



١٨٧٠ ، أو « جيل قلمرية » الذى حاول إخراج البرتغال من حياة الجمود والتخلف . وكان هذا الجيل يتألف من مجموعة من الشباب المتفتح فى طبيعتهم إيسا دى كيروز ، وأورتيجان ، وأوليڤيرا مارتينس . وقام هؤلاء بتنظيم مادعوه « قراءات ديمقراطية » فى كازينو لشبونة ، وذلك لكى يعرفوا أبناء وطنهم بالفكر الأوربي المعاصر . وألقى كنتال الحديث الأول بعنوان له دلالاته « أسباب تخلف شعبى شبه جزيرة إيبيريا » وفى هذا التاريخ نفسه انتمى كنتال إلى الفرع الذى أسس فى البرتغال للمنظمة الاشتراكية العالمية ، كما ارتبط بفكرة كانت تدعو إلى « اتحاد فيديرالى » بين البرتغال وأسبانيا علي نحو ما ، غير أن كنتال أصيب بإحباط حينما رأى أن الطبقة العاملة فى بلاده لم تستجب لأفكاره المثالية . وأنتهت به أفكاره الجريئة إلى إنكار الكاثوليكية واعتناق عقيدة الإيمان بالعلم ، ولكن ذلك لم يخرجـه من دائرة الشكوك التى كانت تلح عليه ولا يجد منها فكاكاً . ويتضح هذا القلق الفكرى فى العديد من مجموعاته الشعرية التى اتخذ لها عنوان « سونتيات » ( Sonnets ) أما من ناحية فكره الفلسفى فلسنا نجد أصالة حقيقية فيما كان يكتبه عن المعتقدات مثل البوذية والعدمية Nihilism وغيرهما . ولكن الذى لاشك فيه هو نبل مقاصده وإخلاصه لقضية العدل الاجتماعى . وفى السنوات الأخيرة من حياته اعتزل الحياة العامة ، وانتهى الأمر به إلى الانتحار .

ومن المعاصرين لكنتال شاعر وافق اتجاه صاحبه فى مستقبل حياته ، ولكن المطاف انتهى به إلى نقيض ما انتهى إليه أمر كنتال ، ونعنى به أنتونيو دوارتى غومس ليال António Duarte Gomes Leal ( ١٨٤٨ - ١٩٢٤ ) ، وكان قد التحق فى شبابه المبكر قد التحق بمكتب موثق ، ثم قضى فترة قصيرة فى كلية الآداب ولكنه لم يواصل الدراسة ، واضطربت به الحياة فى غمار السياسة العاصفة



التي اجتاحت بلاده في أواخر القرن التاسع عشر ، وسرعان ما أصبح شخصية مرموقة في الأوساط السياسية والأدبية ، وأصدر صحيفة ساخرة ( ١٨٧٢ ) . وفي ١٨٧٥ نشر أول ديوان له بعنوان « إشراقات الجنوب Claridades do Sul » ، فلفت إليه الأنظار لجمال صورته وغرابتها . وكان ليال يشن حملات عنيفة على الكنيسة والعرش مما أدى إلى تعرضه لمحاولة اغتيال فاشلة . أما في ميدان الشعر فإن قراءاته الفوضوية وحياته المضطربة لم تمكنه من تقديم عمل شعري كبير منتظم الحلقات ففي ١٨٨٤ نشر قصائد بعنوان « المسيح الدجال O Anticristo » ، وكان مشروعاً طموحاً غير أنه لم يكمله . وكان فكره مضطرباً تعتوره الشكوك : بدأ متمرداً على الكنيسة ولكنه شرع في التغير بالتدريج فإذا به بعد ذلك يتجه نحو قبول المسيحية كما يبدو في كتابه « تاريخ المسيح A Historia de Jesus » ، وانتهى به الأمر إلى الإيمان الكامل بالكاثوليكية .

ومن شعراء المذهب الواقعي سيزاريو فيردى Cesário Verde ( ١٨٥٥ - ١٨٨٦ ) ويعد من أبرز شعراء القرن التاسع عشر . ولد في أسرة غنية ، وكان لوالده ضيعة كبيرة في ضواحي لشبونة ومصانع في العاصمة ، فبدأ حياته مهتماً بمصالح أسرته وتثمين ثروته ، وكان اهتمامه بالفكر والثقافة أمراً هامشياً . ولكنه حينما بدأت مواهبه الشعرية تتفتح أصبح متسقاً مع روح عصره ، فكان متحمساً للرقى الصناعي مشيداً بجهد الإنسان العامل ، معبراً في نتاجه الأدبي عن تحول الإنسان القروي إلى إنسان المدينة المتفاعل مع مجتمعه . وشعره في وصف هذه الظاهرة يعد أكثر الشعر البرتغالي تمثيلاً للمذهب الواقعي الخالص ، على أن نتاجه الشعري قليل بحكم قصر حياته ، ولم ينشر ديوانه وهو بعنوان « كتاب سيزا ريو فيردى O Livro de Cesário Verde » إلا بعد وفاته .



كذلك ينتمي لهذا المذهب أبيليو مانويل غيرا جونكيرو Abilis Manuel Guerra Junqueiro ( ١٨٥٠ - ١٩٢٣ ) وكان بعد تخرجه في جامعة قلمرية قد التحق بالسلك الدبلوماسي ، فعين سفيراً في سويسرا في ١٩١١ . وبدأ حياته الأدبية منتمياً إلى ما أطلق عليه « المذهب الجديد Escola Nova » الذي تزعمه كنيال وأنتيرو ، وكان هذا المذهب يدعو إلى أن يكون موضوع الشعر قضايا الإصلاح الاجتماعي والسياسي وأن يصطنع المنهج العلمي مواكباً عصر تقدم المعارف ، مع عدم التفريق بين القيم الجمالية والخلقية ، بحيث تصبح العدالة الاجتماعية هي المثل الأعلى للفن . وكان جونكيرو يصرح بتبعيته في هذه الآراء لفيكتور هوغو ، هذا وإن لم يخل من التأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بشيطانية بودلير . ونجد أيضاً في شعر جونكيرو سخيرية بما كان الرومانسيون يرددونه عن مثالية الحب ، وذلك في مجموعته الشعرية « موت دون جوان A Morte de dom Joäs ( ١٨٧٤ ) وعم بسخريته المؤسسة الكنسية في ديوانه « شيخوخة الآب المقدس Avelhice do Padre Eterno » ، ( ١٨٨٥ ) والأسرة المالكة في « Finis Patriae » ، نهاية الوطن ( ١٨٩٠ ) وفي مجموعته « الوطن A Patria » ، ( ١٨٩٦ ) . وبلغ شعره قمة التعبير الساخر اللاذع والأسلوب الخطابي العالي النبرة في ديوان « البسطاء Os Simples » ، وقد أتاح له ذلك شهرة واسعة في أيامه ، وهي شهرة لانرى اليوم في إنتاجه الأدبي ما يبررها من الناحية الفنية .

ومن شعراء أواخر القرن التاسع عشر المتأثرين بالاتجاهات الفرنسية التي كانت ردود فعل للرومانسية أنتونيو نوبري António Nobre ( ١٨٦٧ - ١٩٠٣ ) وكان قد بدأ الدراسة في جامعة قلمرية ولكنه قطع دراسته وانتقل إلى باريس فنال شهادة في العلوم السياسية من السوربون . وأصيب بالسل وحاول أن يجد علاجاً



مرضه في جزر ماديرا وسويسرا ونيويورك . وفي أثناء إقامته بباريس عرف شعر  
فيلين وجول لافورغ ، وأكسبه مرضه حساسية مفرطة ، انعكست على شعره الذي  
يفيض بالحنين إلى أيام طفولته التي قضاها بين قرى صيادى السمك وضيعة  
أسرته في ريف شمال البرتغال . وفي باريس نشر مجموعته الشعرية « لحن  
Só ( ١٨٩٢ ) » حيث ترى تعبيراً عن الوحدة والحزن الممض . وبعد وفاته نشرت  
له مجموعتان : « توديعات Despedidas » ، ( ١٩٠٢ ) و « أشعار أولى  
Primeiros Versos » ، ( ١٩٢١ ) .

ويشبه هذا الشاعر في قصر حياته ومأساوية نهايته ماريو دى ساكارنيرو  
Máriode Sá - Carneiro ( ١٨٩٠ - ١٩١٦ ) ، وكان ينتمى إلى أسرة غنية ،  
رحل مبكراً إلى باريس لكي يدرس القانون في ١٩١٢ ، وكان قد نشر في أثناء ذلك  
مسرحية بعنوان الصداقة Amizade ، ومجموعة قصص قصيرة بعنوان « بداية  
Principio » ، وقضى حياته بعد ذلك متنقلاً بين باريس ولشبونة . والموضوع الذي  
استغرق شعر ساكارنيرو هو تجربته الشخصية في الحياة وهي تجربة تحلل  
الشخصية وعبثية الوجود ، وتساعد هذه التجربة حتى نهايتها المفضية إلى  
الموت ، وهو ما حدث له بالفعل إذ انتهى أمره إلى الانتحار وهو في غضاضة  
الشباب . وقد صور ذلك في مجموعته الشعرية التي نشرها في ١٩١٤ بعنوان  
« انتشار Dispersão » ، وقصائد هذه المجموعة تصور لنا تطور فكر الشاعر  
وأحاسيسه ورصدها من تبدد الحلم الأول إلي اليأس إلى الموت الذي أختاره لنفسه  
« بعيداً إلى الشمال في عاصمة كبيرة » وهو انتحاره في باريس . ولكارنيرو إلى  
جوار شعره مجموعات من القصص القصيرة منها « اعتراف لوسيو Aconfissão  
de Lúcio » ، ( ١٩١٤ ) . وآخر مجموعاته الشعرية « علامات من ذهب



Indícios de Ouro ، ويتناول فيها نفس الموضوعات التي أصبحت تسيطر عليه : اليأس والموت ، وهو يعرض فيها محدودية الموضوع بسعة الخيال الجامح وغرابة الصور التي تأثر فيها بالرمزيين الفرنسيين في جرأة غير مسبقة في الشعر البرتغالي .

ويحتل فرناندو بيسوا Fernando Pessoa ( ١٨٨٨ - ١٩٣٥ ) مكانة خاصة في الشعر البرتغالي خلال الثلث الأول من القرن العشرين . وكان قد توفي والده وهو في الخامسة من عمره ، وبعد ذلك بسنتين تزوجت أمه من القنصل البرتغالي في جنوب أفريقيا ، فعاش هناك طفولته وصباه المبكر ، وأتقن اللغة الإنجليزية حتي صار يكتب بها . وفي ١٩٠٥ عاد إلى بلاده ، فالتحق بالجامعة وظل يكتب بالإنجليزية . وفي ١٩١٨ نشر ٣٥ سونتيه 35 Sonnets ، وفي ١٩٢٢ مجموعة أخرى من ثلاثة أجزاء بعنوان « أشعار إنجليزية English poems » ، وعلق عليها المحرر الأدبي لجريدة التايمز قائلاً عنه أنه شاعر « شيكسبيرى ، الأسلوب . وواصل إنتاجه الشعري بالبرتغالية ، وكان ينشره في المجلات الأدبية باسمه الحقيقي وبثلاثة أسماء مستعارة وتنوعت تجاربه الشعرية تنوعاً كبيراً فهو ينتقل من الشعر المفرط في الحسية إلى الشعر الذهني إلى الشعر التجريدي . كذلك كتب مقالات كثيرة في فلسفة الجمال . وقد عده بعض النقاد أعظم شاعر أنجبته البرتغال بعد كاموينس .

ومن أغزر شعراء البرتغال إنتاجاً خلال النصف الأول من هذا القرن إيوجينيو دي كاسترو Eugénio de Castro ( ١٨٦٩ - ١٩٤٤ ) ، هو الشاعر الوحيد الذي انتخب عضواً في المجامع اللغوية : البرتغالي والإسباني والبرازيلي ، وعين عميداً لكلية الآداب بجامعة قلمرية . ويعد أول من أدخل المذهب الرمزي إلى الأدب البرتغالي ، وكان ذلك ثمرة لإقامة له في باريس منذ سنة ١٨٨٩ عرف خلالها



بالأرمية وچان مورياس وكان . وتمثل تشبعة بهذا المذهب فى أربع مجموعات شعرية ينشرها بين ١٨٩٠ و ١٨٩٤ وكان لها تأثير كبير على الجيل التالى له من الشعراء : جيل ساكارنيرو ورفاقه . وتعد المقدمة التى كتبها لـديوانه Oaristas ( ١٨٩٠ ) ذات أهمية بالغة ، وفيها ينبه إلى فقر اللغة الشعرية لدى أدباء بلاده ويدعو إلى الاهتمام بالصورة الشعرية وضرورة أن يكون الشعر مخاطباً لجميع الحواس ، وإلى أن تطلق للشاعر حرية فى استخدام كل الوسائل التعبيرية بما فيها الجنس والموسيقى الداخلية . وكان شعره تطبيقاً لما طرحه من نظريات . على أننا نراه فى ديوانه ، بلقيس Belkiss ( ١٨٩٤ ) نراه يتراجع تدريجياً عن آرائه التجديدية إلى ضرب من الكلاسيكية وإلى اتجاه متزايد نحو استخدام عناصر فولكلورية . ويبلغ عدد مجموعاته الشعرية ثلاثين من أشهرها ، حب مقدس Sagramor ( ١٨٩٥ ) وسالومى Salomé ( ١٨٩٦ ) والملك جالاور O. Rei Galaor ( ١٨٩٧ ) وكونستانسا Constança ( ١٩٠٠ ) وبعد الصائفة Dipois da ceifa ( ١٩٠١ ) ومرصعات رومانية Camafeos Romanos ( ١٩٢١ ) .

رأينا من عرضنا لمحاولات تجديد الشعر البرتغالى أنه كانت تتابع ما كان يظهر فى أوربا ولاسيما فرنسا من مذاهب شعرية ، على أننا نجد فى النصف الأول من هذا القرن دعوة إلى أن يكون التجديد نابعاً من صميم التراث الشعرى البرتغالى . ويمثل هذا الاتجاه تيشيرا دى باسكويس Teixeira de Pascoais ( ١٨٧٧ - ١٩٥٢ ) ، وهو يعد زعيماً للجماعة التى عرفت باسم السوداديين Saudosistas ، ( نسبة إلى لفظ Saudade ويعنى الحنين إلى الماضى وهو الذى يميز لوناً من الغناء البرتغالى الأصيل يغلب عليه طابع الحزن ) . وقد بدأ ظهور هذا الاتجاه بعد قيام النظام الجمهورى فى ١٩١٠ وكان أعضاء هذه الجماعة



ينشرون إنتاجهم الأدبي في مجلة « النسر A Aguia » ، وكان بسكوايس يشرح أصول مذهبه في مجموعة محاضراته التي ألقاها حول ما سماه « العبقرية البرتغالية » . Genis Português . ومن المبادئ التي كان يدين بها تفضيله لما كان يدعو القيم المعمارية الراسخة في الأدب الإنجليزي على موسيقى الرمزيين الفرنسيين . وكان يعبر عن إعجابه بالتراث الشعري البرتغالي وبعد نفسه وجماعته ورثة لشعراء وطنه الأقدمين . و « الحنين » الذي اتخذه أساساً لمذهبه هو في نظره ثمرة امتزاج الدم الروماني بدماء الساميين : العرب واليهود في عروق البرتغالي ، وهو أيضاً مزيج من المسيحية والعقائد الأخرى التي دان بها شعب بلاده خلال حق من تاريخه من وثنية وإسلامية ، وما تعاقب على تاريخ البرتغال من فترات عظيمة وتدهور ، فالشخصية البرتغالية عنده مزيج من المتناقضات ، والحنين ليس إلا خلاصة لهذه الشخصية تجمع بين التذكر والرغبة ، وهو الرباط الذي يصل بين المحب والمحبوب ، بين الحجر والشجر ، بين الروح والجسد ، والخلاصة أن بسكوايس شاعر ميتافيزيقي يبدو تخليق خياله في قصائده الطوال مثل « العودة إلى الفردوس Regresso as Paraíso ( ١٩١٢ ) » و « من أجل النور Para a Luz » ، و « حياة أثيرية Vida Eterna » ، و « الظلال As Sombras » . ولبسكوايس أعمال نثرية حول شخصيات تاريخية منها نابوليون Napoleão والقديس أغسطين San Agostinlo والقديس بولس S. Poulis وغيرهم .

### النثر :

إذا كان غاريت هو رائد الاتجاه الرومانسي في الشعر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فإن نظيره في الكتابة النثرية هو أليكسندر إيركولاند



Alexandre Herculanu ( ١٨١٠ - ١٨٦٦ ) وهو مؤرخ ومفكر ولد في لشبونة ولم يستطع الالتحاق بالجامعة بسبب فقر أسرته ، ولكنه عوض ذلك بالقراءة النهمه حتى استطاع أن يحصل علماً غزيراً . وكان يميل منذ شبابه إلى الحزب الليبرالي ، وهنا ما اضطره إلى الهجرة من وطنه بعد اشتراكه في مؤامرة لخلع النظام الدكتاتوري الذي فرضه على البلاد الملك ميغيل Dom Miguel . وفي أثناء منفيه بفرنسا في ١٨٣١ عمل على دراسة الأدب الفرنسي ، وفي ١٨٣٣ عاد إلى البلاد بصفته جندياً في جيش التحرير الذي كان يقوده المطالب بالعرش بدور Dom pedro وكان مناصراً لقضية الديمقراطية والدستور . وفي ظل النظام الجديد المنتصر كوفيء بتعيينه محافظاً لمكتبة أوبورتو ، على أنه لم يكن مؤيداً للجناح المتشدد من الحزب الليبرالي الذي كان ينتمي إليه ، فندب نفسه للدفاع عن مبادئ الجناح المعتدل بصفته صحفياً ثم نائباً في البرلمان ، وفي ١٨٣٩ عين مديراً لمكتبة أجودا Ajuda الملكية ، وهو مامكه من أن يفرغ لدراساته التاريخية . وقد توقف نشاطه السياسي مؤقتاً خلال دكتاتورية كوستا كابرال ( ١٨٤٢ - ١٨٥١ ) ، وجعله ذلك ينصرف للتأليف فنشر رواية تاريخية بعنوان O Bobo ( ١٨٤٣ ) ثم شرع في تأليف كتابية الكبيرين ، تاريخ البرتغال História de Portugal ، و أصول محاكم التفتيش في البرتغال ونشأتها Origem e Establecimento da Inquisição em portugal ، وحينما ظهر المجلد الأول من تاريخه في ١٨٤٦ أصبح هدفاً لهجوم المؤسسة الكنسية وتجريحها ، وذلك بسبب تبديده لبعض الخرافات الدينية الشائعة مثل إنكاره لتدخل المسيح في معركة وريق Ourique ، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين . وبعد سقوط كابرال عاود إيركولانو نشاطه السياسي ، فاشترك في تعديل القانون المدني وإليه يرجع الفضل في الاعتراف بالزواج المدني في البرتغال ، وفي ١٨٥٧ اعتزل إيركولانو



الحياة السياسية وانقطع إلى ضيعته في شلترين محاطاً بكل ضروب التكريم وفاته . وكتابه في تاريخ البرتغال وتاريخ محاكم التفتيش اللذان يكشفان عن ومنهجيته العلمية في البحث الجاد يعدان من أعظم المنجزات . وفيهما يتدور الليبرالية التي تتمثل في مهاجمته لمحاكم التفتيش وتصوير الغطائع التي ارتكبتها هذه المؤسسة في تعقب المشتبه فيهم بحجة الحفاظ على نقاء الديانة المسيحية .

ومن الكتاب المنتمين للمذهب الرومانسي جوزيه داسيلفا منديس ليال *os Silva Mendes Leal* ( ١٨١٨ - ١٨٨٦ ) ، وكان سياسياً ودبلوماسياً ناجحاً ونال إلى جانب ذلك شهرة واسعة في ميدان الأدب ولاسيما في الكتابة المسرحية على أنه لم يستطع أن يحتفظ بهذه الشهرة التي لم يكن جديراً بها لأن أعماله كانت تتسم بالتقليد وتفتقر إلى الأصالة . وكان قد بدأ إنتاجه الأدبي بنشر ميلودرامات تاريخية صاخبة في أسلوب خطابي زاعق على طريقة دوماس الأب مثل « المرتدّان *Os Dois Renegados* » ، ( ١٨٣٩ ) التي نالت نجاحاً هائلاً لم يتكرر بعد ذلك . وأعقب روايته هذه بروايات مشابهة مثل « الرجل ذو القناع الأسود *O Homem da Máscara Negra* » ، ثم اتجه إلى كتابة المسرحيات الاجتماعية مقلداً دوماس الابن مثل « رجال من رخام *Os Homens de Mármore* » ، ( ١٨٥٤ ) و « رجل من ذهب *O Homem de Ouro* » ، ( ١٨٥٥ ) ، كما كتب مسرحيات تاريخية مثل « إيجاس مونيز *Egas Moniz* » ، ( ١٨٦١ ) وكوميديّة مثل « أولى غراميات بوكاج *Os Primeiros Amores de Bocage* » ( ١٨٦٥ ) . وقد وقفت به موهبة المحدودة عند كونه صحفياً وكاتباً سياسياً ، ولعل خير أعماله في هذا الميدان كان كتابه « تاريخ حرب الشرق *História da*



Guerra do Oriente ، ( ١٨٥٥ ) وتحقيقاً صحفياً جيداً حول حرب القرم . كذلك  
نشر مجموعتين شعريتين ، هما ، أغاني Cânticos ، ( ١٨٥٨ ) و ، قصائد  
Poesias ، ( ١٨٥٩ ) ، وهو ديوان يقلد فيه فيكتور هوغو في تصويره لأبطاله  
الرومانسيين .

وبعد كاميلو كاستيلو برانكو Camilo Castelo Branco ( ١٨٢٥ -  
١٨٩٥ ) في طليعة الكتاب الروائيين خلال القرن التاسع عشر ، وهو كاتب اتسمت  
حياته بطابع مأساوى لازمه طول عمره . كان ابناً غير شرعى وابتلّى باليتم وهو  
في العاشرة ، فرباه بعض أقاربه ، ونال قسطاً من التعليم فى مدرسة قروية ، ثم  
انطلق إلى الحياة المضطربة ، فبعد زواج قصير فى سنة ١٨٤١ حاول دراسة الطب  
فى جامعة قلمرية وأوبورتو ولكنه فشل ، فاشتغل بالصحافة ، وبدأ فى نشر  
مسلسلات حافلة بالدسائس الغرامية جلبت له شهرة كبيرة . وحينما هجرته إحدى  
عشيقاته ، أنا بلاسيدو ، لتتزوج من تاجر غنى فكر فى الانخراط فى سلك الرهبنة  
( ١٨٥٠ ) ، ولكنه سرعان ماهاجر هذه الحياة قبل أن يرسم قسيساً . وكان لرواياته  
وقصة القصيرة آنذاك رواج كبير ، ولم يمنعه زواج عشيقته أنا من الاتصال  
بها . وفي ١٨٥٩ أغراها بالهرب معه إلى لشبونة ، وبسبب ذلك حوكم وسجن .  
وكانت هذه التجربة هى التى أوحى له بأعظم رواياته نجاحاً وشهرة وهى « الحب  
الضليل Amor de perdicão » ، ( ١٨٦٢ ) . وأما مابقى من حياته فكان خالياً من  
الإثارة وإن لازمه الطابع المأساوى ، فقد تمكن أخيراً من الزواج بآنا ولكن طلاوة  
الحب ونشوته ذهبت مع مرور الزمن ، ولم يكن فيمن أنجب الزوجان من الأبناء  
سلوى عما خيم على حياة كاستيلو برانكو من جو قاتم حزين ، فقد تزايد ضعف  
بصره المؤدى به إلى العمى ، هذا مع ما ترتب على إكبابه على العمل من إرهاق  
شديد . وعلى الرغم من نجاح روايته « الحب الضليل » ومن منحه لقب « فيكونت »



في ١٨٨٥ فإنه لم يعيش أبداً في بسطة من العيش . وانتهى الأمر به إلى الانحلال . وقد انعكس حياة برانكو المضطربة الحافلة بالمغامرات على مؤلفاته التي تعد ضرباً من السيرة الذاتية إلى حد ما . ومن بين مئات الروايات والقصص القصيرة التي ألفها يمكن أن نلاحظ أن شطراً منها كان موجهاً لنقد المجتمع نقداً ساخراً لانعاس ، ولاسيما للطبقة البورجوازية حديثة العهد بالنعمة ، ومنها ما يصور حياة الناس في الريف والمدن الثانوية مثل « قصص من نهر المينيو Novelas do Minho ، ( ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ) ، ومنها روايات تاريخية مثل « اليهودي O Judeu ، ( ١٨٦٧ ) وغرامية ملتهبة مثل « أين توجد السعادة ؟ ، Onde está a Felicidade ? ( ١٨٥٦ ) . وأعمال كاستيلو برانكو على مستوى رفيع من الجودة بوجه عام ، مما يجعلها حتي اليوم متعة للقارئ إذ إن مرور الزمن لم يفقدها بريقها ولا جدتها .

ومن معاصري كاستيلو برانكو والمتجهين مثله إلى الواقعية ، نتونيو بندرو لويس دي مندونسا Antonio Pedro Lopes de Mendonça ( ١٨٠٦ - ١٨٦٥ ) ، ولو أنه لم يفرغ للفن القصصي ، إذا شغل أيضاً بالنقد والصحافة ، وأول أعماله القصصية وأبرزها « مذكرات حزين Memórias d um Doido ( ١٨٤٦ ) ، وبها يلاحظ التحول من الاتجاه الرومانسي إلى الواقعية علي طريقة بلزاك . ويبدو أن تقبل الجمهور المحدود لروايته هو الذي صرفه عن الإبداع الأدبي إلى الصحافة السياسية والنقد الأدبي حتي أصبح من رواد هذا النوع الأدبي . وقد تولى تحرير مجلة « ثورة سبتمبر Revolução de Setembro » لفترة ( ١٨٤٦ - ١٨٥٧ ) وتأثلت مكانته ناقداً بكتابه « دراسات في النقد والأدب Estudos de Críticae Literatura » ( ١٨٤٩ ) ثم بكتابة المؤلف من جزأين «



تكريات من إيطاليا *Recordações de Italia* ، ( ١٨٥٢ - ١٨٥٣ ) ، وهو كتاب يجمع بين أدب الرحلة والصحافة الأدبية وقصة حب خفيفة الظل ، وكان له رواج كبير ، ورأى فيه النقاد مشابه من رواية غاريت ، سياحات في أرض بلادي ، وفي ١٨٥٨ نشر دراستين كبيرتين : « داميان دي غويس ومحكمة القسيس *Damião de Gois e a Inquisição* » و « جوزية أغوسيتينو دي ماسيدو *José Agostinho de Macedo* » وأمله هذان الكتابان لكي يشغل كرسي الأدب الحديث في المعهد العالي للأدب الذي أنشئ في لشبونة سنة ١٨٦٠ ، على أن تفسح لوبس دي مندونسا في العمل أدى به إلى نوع من فقد التوازن العقلي ، وهو مرض لازمة في أواخر حياته حتى وفاته .

ومن أعلام الكتابة الصحفية جوزيه دوارتي راماليو أورتيغان *José Duarte Ramalho Ortigão* ( ١٨٣٦ - ١٩١٥ ) وهو مفكر كان على صلة وثيقة بإيسا دي كيروس وكان لكيروس فضل تحويله للدفاع عن قضية التجديد والإصلاح التي نهض بها الجيل المعروف باسم « جيل ١٨٧٠ » ، وأنشأ بالتعاون مع كيروز صحيفة « القيثارات *As Farp* » ( ابتداءً من سنة ١٨٧١ ) ، وكانت ذات طابع نقدي ساخر واتجاه اشتراكي متأثر بوضعية المفكر الاجتماعي تيوفيلو براغا *Tofilo Braga* . على أن حماسة الثورية التي ميزته في شبابه لم تلبث أن نظمت وتحول - على حد قوله - إلى « مغلوب قهرته الحياة *Vencido da Vida* » ، وأصبحت مقالاته في « القيثارات » تغنياً بالحياة التقليدية وبالاحتفالات التي نظمت بمناسبة مرور ثلاثة قرون على وفاة شاعر البرتغال الأكبر كامويس ( ١٥٨٠ - ١٨٨٠ ) وهكذا تم تصالحه مع الملكية البرتغالية وما تمثله من النظام السياسي المحافظ ، بل إن مقالاته الأخيرة كانت هجوماً عنيفاً على الحزب الجمهوري .



ومن الروائيين الذين يمثلون التحول إلى المذهب الواقعي جوليو دينيس Julio Dinis ( ١٨٣٩ - ١٨٧١ ) وهو كاتب بدأ بدراسة الطب في مدرسة الطب ببورتو وإن كان كثير التغيب بسبب إصابته بسل أسرع بوفاته وهو في سن الشباب . وقد طغت شهرته الأدبية على مهنته وارتفعت مكانته في عالم الفن القصصي بفضل ثلاثيته : « تلميذات السيد مدير الجامعة As Pupilas do Senhor Reitor » ، و « أسرة إنجليزية Uma Familia Inglesa » ، و « في حقول قصب السكر A Morgadinha dos Canaviais » ( ١٨٦٧ - ١٨٦٨ ) وكان ينشرها سلسلة في صحيفة أوبورتو Jornal ds Porto ويمثل دينيس مرحلة انتقالية بين الرومانسية والواقعية . وكان تأثره واضحاً بالأدب الإنجليزي ولا سيما بديكنزو تاكيراي وكذلك بالفرنسي بلزاك . وكان دينيس قد تعمق في دراسة علم النفس مما انعكس على رواياته فيما يتخللها من مناجيات ومخاطبات للنفس . وفي رواياته فضلاً عن ذلك تصوير لحياة المدينة ونفسيات نماذجها البشرية ، ولكنه أميل إلى التفاؤل والارتفاع بهذه النماذج إلى المثالية ، إذ لا تكاد نجد في تصويره مشاهد للبؤس أو القبح . وكان دينيس ليبرالي الفكر : هاجم الرجعية الكنسية وفساد نظام الانتخابات ولاسيما في روايته الأخيرة . وقد ألف مجموعة من القصص القصيرة على الطريقة البلزاكية حول حياة الريف ، ورواية كتبها على عجل مما جعلها متفككة بعض الشيء هي « نبلاء من أسرة موريسكية Os Fidalgos da Casa Mourisca » ( ١٨٧١ - ١٨٧٢ ) وفيها يتتبع حياة أسرة من بقية الشعب المسلم الذي كانت تتعقبه محكمة التفتيش بأشد ضروب التنكيل . وله أيضاً مجموعة شعرية ( ١٨٧٣ ) وست مسرحيات كوميدية .

وأعظم كتاب الرواية خلال القرن التاسع عشر مع كاستيلو برانكو هو إيما دي كيروس Eça de Queirós ( ١٨٤٥ - ١٩٠٠ ) . وكان ابناً غير شرعي لأحد



المشتغلين بمهنة القضاء ، فتربى فى كنف جدية ، وتعليم فى جامعة قلمرية حيث كان مكباً على القراءة ، متأثراً بالأدب الرومانسى الفرنسى والألمانى مما يبدو فى كتاباته النثرية الغنائية التى جمعت بعد موته بعنوان « صفحات نثرية وحشية Prosas Barbaras » ( ١٩٠٥ ) . ومارس المحاماة لمدة قصيرة فى لشبونة ، ولكنه لم يلبث أن انضم بكل جهوده إلى نصرة قضية الإصلاح والتجديد التى دعا إليها « جيل ١٨٧٠ » ، مع زميليه أنتيرو وكنثال ، وكان ينشر فى هذا المجال مقالات ملتهبة فى صحيفة « القيثارات » ، التى أنشأها مع أورتيجان ، وألقى فى كازينو لشبونة إحدى محاضرات السلسلة المعروفة بـ « قراءات ديمقراطية » ، وكانت بعنوان « الواقعية : تعبير جديد عن الفن » ( ١٨٧١ ) . والتحق كيروس بعد ذلك بالسلك القنصلى ( فى ١٨٧٢ ) فعاش منذ هذا التاريخ خارج بلاده . وإلى هذه الفترة ترجع رواياته الاجتماعية العظيمة « جريمة الأب أمارو O Crime do padre Amaro » ( ١٨٧٥ ) و « ابن العم باسيليو O primo Basilio » ( ١٨٧٨ ) و « الخبيثات As Malas » ( وهى رواية تأخر نشرها إلى ١٨٨٨ ) ومن منطلق وفائه للمبادئ التى أعلنها فى محاضراته حول الواقعية عمل فى رواياته على كشف عيوب الطبقات الحاكمة فى البرتغال ومفاسدها . وكان هدفه هو الدعوة إلى الإصلاح والتنوير عن طريق كشف اللثام عن الأمراض التى يعانى منها المجتمع البرتغالى ولاسيما طبقاته الرجعية المعارضة لكل تجديد ، على أن تعبيره عن أفكاره كان موضوعياً إلى أبعد حد . وكانت أشد حملاته عنفاً على المؤسسة الكنسية التى عدها معقل الرجعية ، وكذلك ندد بضعف المستوى الثقافى للطبقة الوسطى فى بلاده . وعلى الرغم من هذا الجهد الذى بذله كيروس فى سبيل الإصلاح فإن الاستجابة لكتاباته كانت ضئيلة مما أدى إلى شعوره بالإحباط ، وهذا ما جعله فى أواخر حياته الأدبية يصرف همه إلى الانطواء على نفسه والإخلاد إلى



أدب لا هدف له إلا الزينة وزخرف الأسلوب مثل روايته « أسرة راميرس النبيلة / A lustre Casa de Ramires ، ( ١٩٠٠ ) و « المدينة والجبال A Cidade e as Serras ، ( ١٩٠١ ) . وخلال هذه السنوات الأخيرة كان يعيش في باريس وينظر إلى بلاده كما لو كان سائحاً أجنبياً ، وكان قد أصهر إلى أسرة أرستقراطية وأخذ إلى حياة الرفاهية حتي وفاته في باريس .

وممن اشتغلوا بالكتابة التاريخية جواكيم بدرو دي أوليفيرا مارتينس Joaquim Pedro de Oliveira Martins ( ١٨٤٥ - ١٨٩٤ ) وهو مؤلف غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات كتب في التاريخ العام وفي تاريخ بلاده . وكان مؤرخاً موهوباً لم يقصر اهتمامه على رصد الأحداث التاريخية وإنما عمل على أن يفسرها تفسيراً اجتماعياً ، كما كانت له أحكامه الخلقية على الأحداث الكبرى وعلى الشخصيات التي قامت بدور فيها ، غير أن غزارة المادة التي كانت بين يديه واتساع دائرة اهتماماته جعلته يقع في أحكام تعميمية غير سليمة وفي أخطاء عديدة . وكان مارتينس ممن علموا أنفسهم بأنفسهم ، كما شارك في الحياة العامة على نحو نشيط ومتنوع ، فقد عمل مديراً للمناجم في محافظة قرطبة بإسبانيا ، ثم مديراً لشبكة الخطوط الحديدية في بلاده ، ووزيراً للخزانة ، ولم تحل هذه الوظائف بينه وبين الكتابة . ومن أهم مؤلفاته « تاريخ الجمهورية الرومانية História da Republica Romana ، ( ١٨٨٥ ) و تاريخ البرتغال História de Portugal ، ( ١٨٧٩ ) و « تاريخ الحضارة الإيبيرية / História da Civilização de Lbérica ، ( ١٨٧٩ ) وهذا الكتاب الأخير تفسير نقدي لتاريخ إسبانيا والبرتغال كان له شهرة واسعة في كلا البلدين .

ومن الذين جمعوا بين الفن الروائي والمسرحي والتأريخ الاجتماعي والصحافة راؤول براندون Raul Brandão ( ١٨٦٧ - ١٩٣٠ ) . لمع نجمه في



الوسط الأدبي في العقد الأخير من القرن الماضي بصفته كاتباً لقصص قصيرة ثم صحفياً في جريدة « بريد الصباح *Correio da Manhã* » ، وكان يعالج في مقالاته معاناة الطبقات الفقيرة وما تتعرض له من استغلال الأقوياء ، وظهر ذلك على نحو أكثر فنية في روايته « مذكرات قصره *Memórias de um Polhaço* » ( ١٨٩٦ ) حيث صور مأساة العمال والفلاحين والبحارة . وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين تأثر بالفن الروائي الروسي ولاسيما بدستوفسكي ، وكان من ثمرات ذلك رواياته الثلاث العظيمة : الفقراء *Os Polres* ، ( ١٩٠٦ ) و « المهزلة *AFarsa* » ، ( ١٩٠٩ ) و « دخان *Húmus* » ، ( ١٩١٧ ) ، وذلك في روايتيه مسرح *Teatro* ، ( ١٩٢٣ ) و « المتسول *Pobrede Pedir* » ، ( ١٩٣١ ) . ويتميز فنه القصصي بأسلوبه الشعري وتأملاته الفلسفية حول الحياة وشخصية الإنسان في ازدواجيته النفسية بين « الأنا » ، الفردية والشخصية الاجتماعية . أما مضمون رواياته فهو متردد بين المثالية الصوفية والعدمية الفوضوية . ولبراندون إلى جانب مذكرناه ثلاث دراسات تاريخية اجتماعية هي « الملك جونوت *El-rei Junot* » ، ( ١٩١٢ ) و « مؤامرة غومس فريري *A Conspiração de Gomes Fereire* » ، ( ١٩١٤ ) ، و « المذكرات *As Memórias* » ( المنشورة في ثلاثة مجلدات في ١٩١٩ و ١٩٢٥ و ١٩٣٣ ) بالإضافة إلى مجلدين من التحقيقات الصحفية .

ومن أبرز كتاب القرن العشرين أكيلىنوريبيرو *Aquilino Ribeiro* ( ١٨٨٥ - ١٩٦٣ ) ، وهو كاتب له نحو سبعين مؤلفاً ما بين روايات ومجموعات قصص قصيرة ومسرحيات ومقالات وترجمات ودراسات تاريخية ونقدية وسير وقصص للأطفال . وحياته حافلة بالأحداث : كان ثورى الفكر وبسبب آرائه السياسية سجن



وهرب من السجن ونفى مرتين ( في ١٩٠٧ و ١٩٢٧ ) فاستقر في فرنسا ودرس في السوربون ، وأنضم إلى الحركة الثورية المعروفة باسم Seara Nova . وكرمة حكومة البرازيل في ١٩٥٢ ، وفي ١٩٥٨ انتخب عضواً في الأكاديمية البرتغالية ورئيساً لاتحاد الكتاب ومرشحاً لجائزة نوبل . وكانت وفاته موافقة للاحتفال بالذكرى الخمسينية لظهور أول مجموعة من قصصه القصيرة « حديقة العواصف Jardim das Tormentas » التي ألفها حينما كان يدرس في باريس ، وتعد أعماله الأدبية كلها تعبيراً عن الكفاح ضد الاستبداد واستغلال الأقوياء للضعفاء والنفاق والرجعية . ويدور الكثير من قصصه في الريف ، ولاسيما في منطقة بيرا العليا Beira Alta ، ولكنه اتجه بعد ذلك إلى تصوير الحياة في العاصمة لشبونة منذ عاد من منفاه في سنة ١٩٣٢ . ويتميز أسلوب ريبيرو بغناه اللغوي واستخدام لغة التخاطب اليومي ، وهو يفوق في هذه الظاهرة أسلوب كاستيلو برانكو الذي كان يكن له إعجاباً عظيماً مما حمله على كتابة دراسة جيدة له . وأبرز إنتاج ريبيرو مجموعته القصصيتان « حديقة العواصف » التي أشرنا إليها ( ١٩١٣ ) و « طريق سنتياغو Estrada de Santiago » ( ١٩٢٢ ) ، ثم رواياته الطويلة « الطريق المتعرج A via sinuosa » ( ١٩١٨ ) و « أرض الشيطان Terras de Demo » ( ١٩١٩ ) و « الوحوش تجوس الغابات Andam Faunos Pelos Bosques » ( ١٩٢٠ ) و « ماريا الطيبة Maria Benigna » ( ١٩٣٣ ) ومن أهم رواياته « عندما تعوى الذئاب Quands as lobos Uivam » ( ١٩٥٨ ) وهي رواية منعت الحكومة تداولها بعد طبعها الأولى وصادرتها حتى لم تعد في متناول الأيدي إلا في ترجمتها الإنجليزية الصادرة في سنة ١٩٦٣ .

ومن أبرز كتاب القرن العشرين جوزين ماريا فيريرا دي كاسترو José Maria Ferreira de Castro ( المولود في ١٨٩٨ ) وهو قصاص هاجر في صباه



المبكر إلى البرازيل سنة ١٩١١ ف قضى أربع سنوات يعمل في مزارع المطاط في غابات الأمازون ثم ثلاث سنوات أخرى في ولاية بارا Pará مشغلاً بالصحافة وسنة متجولاً في أنحاء البرازيل ، وعاد إلى البرتغال سنة ١٩١٩ فواصل العمل في الصحافة ، ونشر عدداً من الروايات القصيرة ومسرحية . وكان أول نجاح له في عالم الأدب حينما نشر روايته الاجتماعية « المهاجرون Emigran tes ، ( ١٩٢٨ ) التي صور فيها من خلال تجربته الشخصية معاناة المهاجرين البرتغاليين في البرازيل . وكان نجاحه الثاني عند نشره رواية « الغابة A Selva ، ( ١٩٣٠ ) التي أكسبته شهرة عالمية إذ ترجمت إلى سبع عشرة لغة ، وهي تصوير لحياة مستخرجي المطاط في الغابات الأمزونية . واستمرت عنايته بتصوير أحوال العمال ومايقاسونه من استغلال الشركات الرأسمالية في رواياته الأربع التالية : « أبد Eternidade ، ( ١٩٣٣ ) و « الأرض الباردة Terra Fria ، ( ١٩٣٤ ) و « عاصفة Tempestade ، ( ١٩٤٠ ) و « الصيف والجليد A Lã e a Neve ، ( ١٩٤٧ ) ، وهذه الأخيرة هي أقوى رواياته ، فهي رصد لحياة الرعاة وعمال النسيج في منطقة كوفيليا Covilha . ولمؤلفنا بعد ذلك روايتان تجرى أحداثها خارج بلاده : « منعطف الطريق A Curva da Estrada ، ( ١٩٥٠ ) و « المهمة A Missão ، ( ١٩٥٤ ) ، الأولى صور فيها ماوقع في إسبانيا بعد إعلان الجمهورية في سنة ١٩٣٠ من اضطرابات سياسية كانت ممهدة للحرب الأهلية الإسبانية الناشبة في ١٩٣٦ ، والثانية تجرى في فرنسا تحت الاحتلال النازي وحركة المقاومة الفرنسية بين ١٩٤١ و ١٩٤٤ . وفي هذين العاملين لا يتحدث فيريرا دي كاسترو - كما في رواياته السابقة - عن حياة الكادحين المقهورين ، وإنما عن صراع الإنسان مع نفسه حينما يجد نفسه تحت ضغوط الظروف السياسية مضطراً لاتخاذ قرار صعب . وقد خاض دي كاسترو مجالات



أخرى غير قصصية بحكم رحلاته الكثيرة وتجارية الفنية وقدرته الصحفية وخياله الخصب واهتمامه بسائر الفنون ، وظهر ذلك فى عدد من مؤلفاته ، منها : عوالم صغيرة وحضارات قديمة Pequenos Mundos exelhas Civilizações ، ( ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ) و ، جولة حول العالم A Volta as Mundo ، ( ١٩٤٤ ) و ، عجائب العالم الفنية As Maravilhas Artisticas do Mundo ، ( ١٩٥٧ - ١٩٦١ ) . وكانت مؤسسات عديدة فى البرتغال وخارجها ترشحه لجائزة نوبل ، ولكنه كان دائماً مصراً على رفض هذا الترشيح .

ويشبه هذا الكاتب فى تنوع اهتماماته ميغيل تورغا Miguel Torga ( وهو الاسم المستعار الذى كان يوقع به ، واسمه الحقيقى هو ألفريدو روتشا Alfredo Rocha ) ولد سنة ١٩٠٧ وبدأ حياته فى قلمرية ممارساً طبياً ، وكان فى شبابه منتمياً إلى جماعة الشعراء الذين ينشرون إنتاجهم فى صحيفة ، الحضور Presença ( ١٩٢٧ - ١٩٤٠ ) كما كان ينشر فى الصحيفة التى أنشأها بالتعاون مع زميل له هو برانكينيو دى فونسيكا ، وهى ، علامة Sinal ، وفى سنة ١٩٣٠ قطع صلته بصاحبه وبدأ ينشر فى مجلات أخرى مثل ، مجلة البرتغال Revista de Portugal ( ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ) ، وهو كاتب غزير الإنتاج متنوع الجوانب ، فقد نشر ثلاث عشرة مجموعة شعرية وأربع مسرحيات وعشر أعمال روائية ومجلدين فى أدب الرحلات . وابتداءً من سنة ١٩٤١ شرع فى كتابة يومياته التى كان يصدر منها مجموعة كل ثلاث سنوات ، وتتضمن كل مجموعة خليطاً من القصائد والمقالات القصيرة والتعليقات . وأهم دواوينه الشعرية ، كتاب أيوب الآخر O Outro Livro de Job ، ( ١٩٣٦ ) و ، قصائد Odes ، ( ١٩٤٦ ) و ، أورفيوس المتمرد Orfeu Rebelde ، ( ١٩٥٨ ) وشعره شعر احتجاج ورفض



للوجود كله : لصراع الإنسان وسرعة انقضاء الحياة ، ولكفاح ، سيزيف ، أى لجهد الإنسان الذى لا ينتهى من أجل تحقيق ما لا يصل إليه أبداً . وأهم أعماله النثرية ، حشرات Bichas ، ( ١٩٤٠ ) وجنى العنب Vindima ( ١٩٤٥ ) و Portugal ( ١٩٥٠ ) . وأكثر أعماله شهرة هى المجموعة الأولى ، «حشرات» ، التى تتضمن قصصاً قصيرة يدور معظمها حول الحيوانات التى أضفى عليها الكاتب حياة ومشاعر إنسانية معالجاً دورة الحياة من الميلاد حتى الموت . ويغلب على روايته الأخيرة «جنى العنب» ، و «البرتغال» ، شعور اليأس والتشاؤم والاستسلام للقدر . ومن أعماله الأخرى رواية تعد ضرباً من السيرة الذاتية هى «خلق العالم A Criação do Mundo» ، ( ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ) وكذلك «أغاني الجبل Cantos da Montanha» ، ( ١٩٤١ ) ثم «أغاني الجبل الجديدة Novos Cantos» ، ( ١٩٤٤ ) ، وهما مجموعتان من القصص القصيرة يصور فيها صعوبة الحياة فى الإقليم الذى كان مسقط رأسه وهو ما وراء الجبال - Trás os Montes ، فى شمال شرقى البرتغال .







الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

٢٠٠٢ / ١٥٩٣٥







كانت بداية الأدب البرتغالي قوية بما فيها من تنوع وفحولة وإن اتسمت بما تكون عليه البدايات دائما من خشونة وبداعة ، فقد ولد في دفاء احتكاكه بالأدب العربي الأندلسي الذي أثري لغته الوليدة ووسّع مجالات التعبيرية ، واستفاد من تجربة الأدب الإسباني : القشتالي والجليقي الذي كان شقيقا له ومقاسما إياه فيما غذاه من روافد عربية ، ثم كان وعي الشعب البرتغالي المتزايد بشخصيته هو الذي جعل هذا الأدب يمضي شيئا فشيئا في طريق الاستقلال بعد أن قدر له حظ من النضج واستوي على ساقه .

علي أن القرن السابع عشر لا يكاد يهل حتي يدخل هذا الأدب في فترة من التراجع والركود تستمر خلال القرن التالي وشطر من القرن التاسع عشر أيضا .